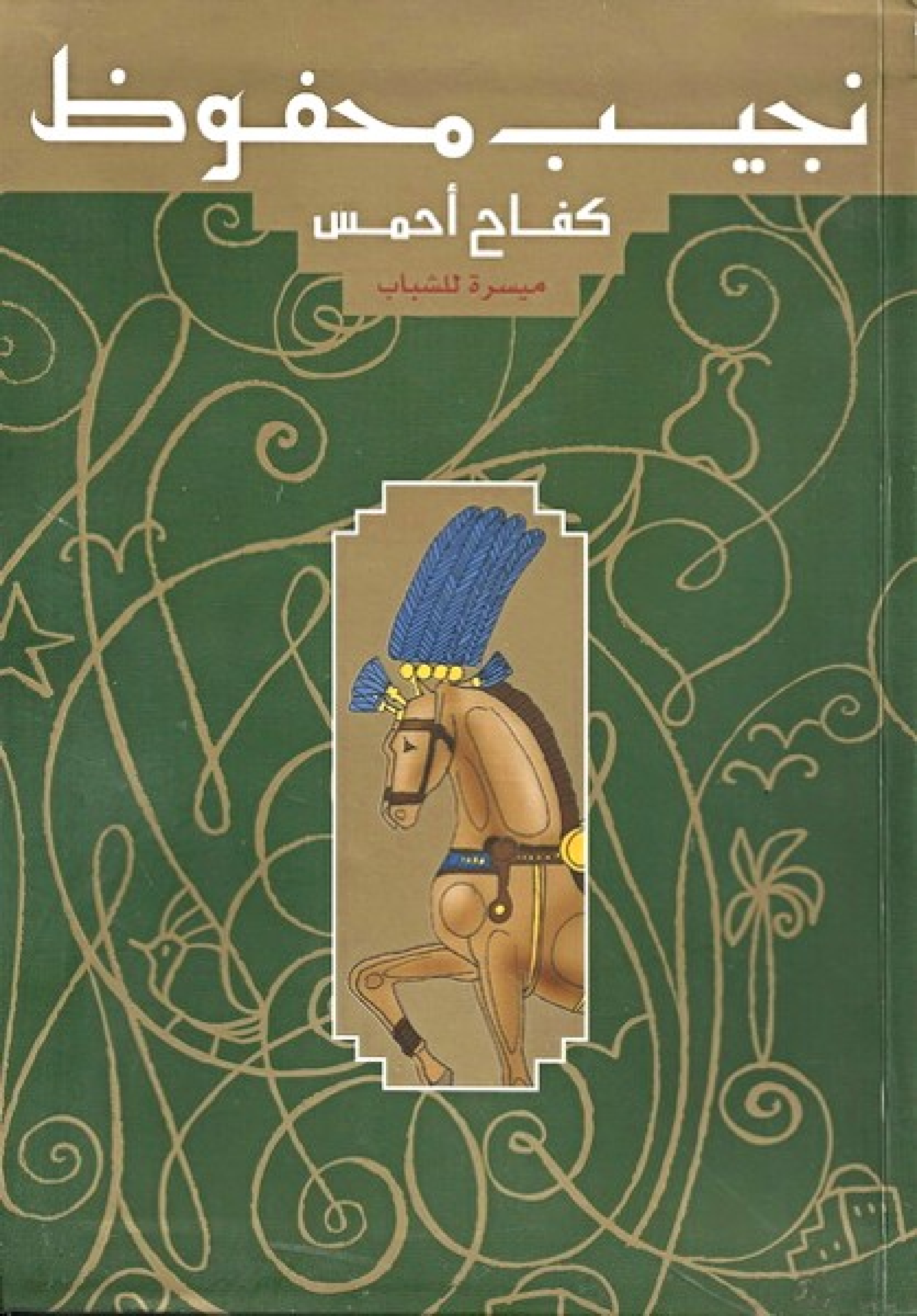

نجيب محفوظ
كفاح أحمس
ميسرة للشباب

نجيب محفوظ

كفاح أحمس

تيسير وتبسيط محمد المعلم

الغلاف والرسوم : مصطفى حسين

دار الشروق

كفاح أحمس

ميسرة ومبسطة

رواية الكاتب الكبير نجيب محفوظ ،
نقدمها بنفس لغتها ميسرة للناشئين ،
ليقرأوها بفهم تام ، واستمتاع بأحداثها كاملة ،
وسعادة بتجاوزهم قراءة القصة إلى قراءة الرواية .

محمد المعلم

الطبعة الأولى

١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

© دار الشروق

القاهرة ١٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤

برقيا: شروق - تلكس: 93091 SHROK UN

بيروت ص ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

برقيا: دار الشروق - تلكس: SHOROK 20175 LE

بسم الله الرحمن الرحيم

١

لم تكن حياة الأسرة الفرعونية فى المهجر ، حياة دعة وخمول ، بل كانت حياة عمل وإعداد للمستقبل البعيد . وكانت الأم توتيشيرى محور هذه الحياة . لم تعرف اليأس أو الراحة . طلبت ، فور قدومها ، من الحاكم رءوم أن يجمع المهرة من الصناع النوبيين ، والفنيين المصريين المقيمين بالنوبة . وطلبت من الملك كاموس أن يعهد إليهم بصنع السلاح والخوذات والثياب الحربية ، وبناء السفن وعجلات القتال . وكانت تقول له :

ـ سيجىء اليوم الذى تهجم فيه على العدو الذى اغتصب عرشك ، وامتلك بلادك . فينبغى أن تهجم بأسطول كبير ، وبقوة من العجلات لا تقهر .. كما فعل العدو مع أبيك .

وتحوّلت نباتا ، فى أثناء السنوات العشر ، إلى مصنع كبير لصناعة السفن والعجلات والآلات الحربية بجميع أنواعها .

فلما جاء الرجال فى القافلة الأولى ، وجدوا السلاح والعتاد جاهزا متوفّرا . فأقبلوا على التدريب بقلوب يملؤها الحماس والأمل ، بعد أن انخرطوا جميعا فى سلك الجندية . وأخذوا يتدربون على فنون القتال ، واستعمال مختلف الأسلحة ، تحت إشراف ضباط الحامية المصرية التى بقيت ـ بعد الغزو ـ فى النوبة .

ولم يأخذهم ـ فى التدريب ـ رفق أو هوادة . فكانوا يعملون من مطلع الفجر إلى غروب الشمس . وكانوا يعملون جميعا لا فرق بين كبير وصغير . وكان الملك كاموس يشرف بنفسه على تدريب الجنود ، وتكوين الفرق ، واختيار الصالحين

للأسطول . وكان ولى العهد أحمس يعاونه . وأصرّت الملكات الثلاث والأميرة الصغيرة على أن يعملن مع العاملين . وكان منظر الأم توتيشيرى رائعا ، وهى منكبّة على عملها بهمة لا تعرف الملل ، أو سائرة بين الجنود ، تشاهد تدريبهم وتلقى عليهم كلمات الحماس والأمل . وكان الرجال قد انقلبوا بفضل التدريب إلى وحوش كاسرة . وكانوا ، عندما يرونها ، ينسون أنفسهم ، ويشتعلون حماساً وإقبالا على التدريب ، وكانت تبتسم استبشاراً ، وتقول لهم :

ـ استعدوا يارجال طيبة للمعركة . سوف يكون على الواحد منكم أن ينقضّ على عشرة من الرعاع ، فينزل الرعب فى قلوبهم .

وانصرف الحاجب حور إلى إعداد القافلة الثانية . فضاعف عدد السفن لها . وملأها بالذهب والفضة والأقزام والحيوانات الغريبة . ورأت الأم توتيشيرى أن يحمل معه جماعات من النوبيين المخلصين ، ليهديهم إلى غزاة طيبة . فيكونوا عبيداً فى الظاهر ، وأعواناً فى الباطن ، يطعنون العدو من الخلف عند الاشتباك معه . وأعجبت الفكرة الملك كما أعجبت الحاجب حور ، وعمل على تحقيقها بغير تردد .

وانتهى حور من إعداد القافلة . وانتظر الجميع الإذن بالسفر . وكان الأمير أحمس ينتظر هذه الساعة ، بقلب أضناه الشوق والهوى ، ليرحل على رأس القافلة . ولكن الملك كان قد علم بالأحداث والأخطار التى تعرض لها فى القافلة الأولى ، فلم يرض أن يجازف بسفره مرة أخرى . وفاجأه بقوله :

ـ واجبك الآن ، أيها الأمير ، يدعوك للبقاء فى نباتا .

كان وقع المفاجأة على الأمل المضطرم فى صدره كوقع الماء البارد على جمرة متّقدة . فقال للملك برجاء صادق :

ـ رؤية مصر والاختلاط بأهلها ، شفاء لما فى قلبى يامولاى .

فقال الملك :

ـ ستجد الشفاء التام ، يوم تدخلها غازيا ، على رأس جيش الخلاص .

عاود الشاب الرجاء ، ورد الملك بحزم :

ـ لن يطول انتظارنا . فاصبر حتى تأذن ساعة الكفاح .

أدرك الشاب من لهجة الملك أنه قال كلمته الأخيرة ، فحنى رأسه بالتسليم

صفحة فارغة

والقبول . وتجلّد ومضى إلى المعسكر حيث يتدرب الرجال ، وقلبه حزين كئيب .

كان أحمس يقضى نهاره فى العمل الشاق . ولم يكن يظفر إلا بساعة قصيرة قبيل النوم ، يخلو فيها إلى نفسه ، ينادى حلو الذكريات ، ويحوم بخياله حول المقصورة الجميلة فى السفينة الفرعونية ، التى شاهدت ساعة الوداع ، ويتخيل أنه يسمع الصوت الرخيم يتمتم قائلا « إلى الملتقى » . ثم يتنهّد من أعماق قلبه ، ويقول أسيفا محزونا : أين الملتقى ؟ إنه كان الوداع الذى لا لقاء بعده .

واستطاعت نباتا ، رويدا رويدا ، أن تُنْسِيَ الشاب نفسه وهمه ، وأن ينشغل بما هو أجل وأخطر . وكان الرجال يعملون جادين بغير انقطاع . ومرت بهم الأيام وهم لا يصدقون أن فى الدنيا شيئا غير العمل ، أو أن فى الغد شيئا سوى الأمل .

وعادت القافلة برجال جدد يهتفون لمصر كما هتفوا هم يوم مجيئهم ، ويصيحون متلهفين مثلهم : أين مليكنا كاموس ؟ وأين أمنا توتيشيرى ؟ وأين أميرنا أحمس ؟ ثم ينضمون إلى المعسكر يعملون ويتدربون .

وجاء الحاجب حور إلى الأمير أحمس وحيّاه . ثم مدّ له يده برسالة ، وقال :

ـ طُلِبَ منى أن أحمل هذه الرسالة إلى سموك .

فسأله أحمس وهو يتناولها دهشاً :

ـ من مُرسلها ؟ .

لزم حور الصمت فى وجوم . فخطر للأمير خاطر خفق له قلبه . وفضّ الرسالة ، وقرأ التوقيع . فارتعدت مفاصله ، واشتدت ضربات قلبه ، وجرت عيناه على أسطر الرسالة . إنها تحمل إليه عتابا ذكيا بطريقة غير مباشرة . فهى تتحدث عن قزم من أقزامه أَنِسَتْ به وأَنِسَ بها ، هرب ولم يعد ؟ وتسأله : هل لك أن تبعث إلىّ بقزم جديد يعرف الوفاء ؟ .

عند انتهائه من قراءة الرسالة ، أحس بطعنة نجلاء تصيب قلبه ، وبالأرض تتحرك تحت قدميه . ومضى فى سبيله محزونا كسير الفؤاد ، يقول لنفسه : هيهات إن تدرى بما منعه من العودة إليها . وسترى فيه دائما القزم عديم الوفاء .

وانطوى على آلامه ، لا يحس به إلا أقرب الأفئدة إليه ، نيفرتارى . فاحتارت من أمره ، وعجبت ماذا يكمن وراء ذهوله ، وشروده ، ونظرة الحزن التى تلوح فى

عينيه الجميلتين . وذات مساء ، قالت له :

ـ لست كعهدى بك ياأحمس .

فاضطرب لملاحظتها ، وداعب ضفائرها بأنامله ، وقال مبتسما :

ـ التعب ياحبيبتى .. ألا ترين ما نحن فيه من كفاح يهد الجبال ؟ .

فهزت رأسها ، ولم تقل شيئا .. وغدا أحمس أشد حذرا . على أن نباتا لم تكن لتترك إنسانا يغرق فى أحزانه . فالعمل قاهر الأحزان . وقد شهدت من معجزات العمل ما لم تشهده من قبل ولا من بعد . تُدّرب الرجال ، وتصنع السفن والعجلات والسلاح ، وترسل القوافل محملة بالذهب لتعود محملة بالرجال .

ومضت الأيام والشهور الطوال ، إلى أن جاء اليوم المرتقب السعيد . فقصد الملك كاموس إلى جدته توتيشيرى ، وهو لا يتمالك من الفرح . ولثم جبينها ، وقال بصوت متهدّج .

ـ أبشرى ياأماه .. تم إعداد جيش الخلاص .

٢

دقت طبول الرحيل ، فانتظمت فرق الجيش ، ورفع الأسطول مراسيه . ودعت الأم توتيشيرى الملك وولى العهد وكبار القواد والضباط ، وقالت لهم :

ـ هذا اليوم السعيد .. طال انتظارى له . فأبلغوا جنودكم البواسل أن توتيشيرى تضرع إليهم أن يحطموا الأغلال التى تطوّق أعناق مصر . وليكن شعاركم جميعا أن تحيوا حياة أمنحتب أو تموتوا ميتة سيكننرع . بارككم الرب آمون ، وثبّت قلوبكم .

فقبل الرجال يدها ، وقال لها الملك كاموس :

ـ سيكون هذا شعارنا جميعا . وسيموت من يموت منا أشرف ميتة ، ويحيا من يبقى منا أعزّ حياة .

وخرجت نباتا ، وعلى رأسها الأسرة الفرعونية والحاكم رعوم ، تودّع الجيش الصاخب . ودقت الطبول ، وعزفت الموسيقى ، وتحرك الجيش ، تتقدمه قوة الكشافة تحمل الأعلام ، ويسير الملك فى طليعته وسط هالة من الحاشية والحجاب والقواد ،

يتبعها الحرس الفرعونى فى عجلاته الأنيقة . ثم تقدمت فرقة العجلات الجبارة تسير صفوفا صفوفا لا يحدّها البصر ، تبعث عجلاتها فى الجو صلصلة تصمّ الآذان ، وتليها فرقة القسىّ الثقيلة بأقواسها ودروعها وجعبات السهام ، تتبعها فرقة الرماح المدربة برماحها وتروسها ، ثم فرقة الأسلحة الخفيفة ، فعربات السلاح والمؤن والخيام تحرسها الفرسان . وأبحر كذلك الأسطول بسفنه الجبارة ، وقد استعد الجنود عليه بكامل معداتهم من القسىّ والرماح والسيوف .

تقدمت هذه القوات جميعها على أنغام الموسيقى ، تتقد الحماسة فى قلوبها الفتية الغاضبة ، ويلقى منظرها الرعب فى النفوس . تقطع النهار سيرا ، وتهجع وتنام بعد أن يحل الظلام . لا تكل ولا يصيبها الإعياء ، مستعينة على مشاق الرحلة بعزائم تزحزح الجبال . ومازالوا يضربون فى الأرض حتى بلغوا دابور آخر بلدان النوبة فى الشمال . ونسمت على وجوههم روح مصر الطيبة ، فعسكروا ، وأقاموا الخيام ليستريحوا من وعثاء السفر ، ويأخذوا أهبتهم للنضال .

ودبّر الملك مع رجاله خطة الغزو الأولى ، وأحكموا التدبير . وعهد إلى أحمس أبانا ــ وكان أمهر رجال الأسطول كافة ــ بقيادة جزء من الأسطول ليسير به إلى حدود مصر ، على أنه قافلة مما ألِف حراس الحدود مرورها . وعند فجر اليوم الرابع ، أبحر الأسطول الصغير ، فبلغ الحدود المصرية عند إشراق الصباح ، وكان أحمس أبانا يقف على ظهر السفينة فى ثياب التاجر الفضفاضة ، فأبرز جواز الدخول للحراس ، ودخل بأسطوله فى سلام . وكان أحمس يعلم أن قوة حراسة الحدود مكونة من سفن قليلة وحامية صغيرة . فكانت خطته ترمى إلى مفاجأة هذه السفن والاستيلاء عليها ، ثم ضرب الحصار حول جزيرة بيجة حتى يدخل الجيش والأسطول أرض مصر . فيسهل ضرب سيبين قبل أن تأخذ استعدادها .

وتقدمت القافلة فى خط أفقى ، فلما اقتربت من شاطئ بيجة الجنوبى ، حيث ترسو سفن الحراسة ، ظهر الجنود على سطح القافلة وبأيديهم القسىّ ، وخلع أحمس عباءة التجار فبدا فى ثياب الضباط . وأمر بإطلاق السهام على حرس السفن ، واقترب أسطوله الصغير بسرعة من السفن الراسية ، وانقض عليها ، وألقى عليها شباكه ، وقفز الجنود إلى سطحها ليستولوا عليها ، واشتبكوا مع الحراس القليلين فيها

صفحة فارغة

فى معركة صغيرة ، وأبادوهم فى زمن يسير . وفى أثناء ذلك كانت سفينة أحمس تطلق سهاما على حرس الشاطئ لتمنعهم من معاونة زملائهم فى السفن . فتم الاستيلاء على سفن الحراسة بسرعة ، وضرب الأسطول الصغير الحصار حول الجزيرة . وتنبهت حامية بيجة إلى الحركة الخاطفة ، فأسرعت إلى الشاطئ ، ولكنها وجدت نفسها حبيسة محصورة وأن سفن الحراسة قد وقعت فى الأسر .

ولم يمض وقت كبير على انتهاء المعركة ، حتى بدت وحدات بقية الأسطول المصرى فى الأفق قادمة صوب الحدود . ثم اجتازتها دون مقاومة . وانضمت إلى أسطول أحمس أبانا ، وأصبحت الجزيرة وسط دائرة من السفن الضخمة ، مما اضطر حامية بيجة إلى التقهقر إلى قلب الجزيرة ، بعيدا عن مرمى سهام الأسطول التى انهالت عليها من جميع الجهات .

ثم دخلت طلائع الجيش الحدود ، تتبعها الفرق ذات الكثرة والجلبة ، أدرك المحاصرون فى بيجة أن القادمين غزاة ، وليسوا قراصنة كما توهموا أول الأمر . ثم أصدر قائد الأسطول فكاف أمره بالهجوم على الجزيرة ، فانقضت عليها السفن من جميع الجهات ، وأنزلت الجنود المدججين بالسلاح ، تحت حماية الأقواس والسهام . وزحف الجنود من جميع النواحى نحو الحامية . ورأى جنودها تدفق القوات المصرية فى البر والنيل ، فخذلتهم شجاعتهم وألقوا السلاح وسلموا أنفسهم أسرى .

وكان أحمس أبانا على رأس المهاجمين ، فدخل قصر الحاكم دخول المنتصر ، ورفع عليه الأعلام المصرية ، وأمر بالقبض على الجنود والأعيان والموظفين الرعاة .

ورأى أهل الجزيرة ، من الفلاحين والعمال ، الجنود المصريين فلم يصدقوا أعينهم . وهرعوا نساء ورجالا إلى قصر الحاكم الجديد . فخرج إليهم أحمس أبانا ، وقال لهم :

ــ حباكم الرب آمون ، حامى المصريين وقاهر الرعاة فوقعت كلمة آمون وقع السحر فى آذانهم ، وقد حرموا سماعها عشرة أعوام ، وأضاء الابتهاج وجوههم ، وتساءل بعضهم :

ــ هل جئتم حقا لإنقاذنا ؟

فقال أحمس أبانا بصوت متهدج :

– وإنقاذ مصر المستعبدة . فأبشروا . ألا ترون هذه القوات الهائلة ؟ إنها جيش الخلاص .

فهتف القوم طويلا . ثم صلوا صلاة جامعة ، تصاعد فيها الدعاء إلى آمون فى السماء ، وكاموس فى الأرض .

٣

فى إشراق الضحى ، نزل الملك كاموس ومعه ولى عهده والحاجب حور وأفراد الحاشية ، إلى أرض الجزيرة . فاستقبله أهلها استقبالا حماسيا . فحياهم بيديه ، وتحدث إلى جمع غفير من رجالهم ونسائهم وأطفالهم ، وأكل ما قدموه له من الدوم والفاكهة .

وأصدر الملك أمره بتعيين سمار ، أحد رجاله المخلصين ، حاكما على الجزيرة . وعهد إليه بنشر القانون والعدالة .

وأجمع القواد على وجوب مفاجأة سيبين عند الفجر ، ليضربوها الضربة القاضية قبل أن تفيق من ذهولها .

ونام الجيش مبكرا ، واستيقظ عند الفجر . ثم زحف نحو الشمال ، ومعه الأسطول يسد منافذ النيل ، واقتربوا من سبين . وأصدر كاموس أمره إلى الأسطول بضرب الحصار على الساحل الغربى للمدينة ، وإلى القوات لتزحف وتهجم على المدينة من ثلاث جهات فى وقت واحد . وكان يقود العجلات ضباط قدماء يعرفون المدينة ومواقعها ، فأوقعوا بالعدو مذبحة سالت فيها الدماء أنهارا . وتساقط الرعاة كأوراق الخريف اليابسة التى هبت عليها رياح عاصفة . أما الأسطول فلم يلق مقاومة ، واستولى على الشاطئ . وأنزل قوات من جنوده ، فهجموا على القصور وقبضوا على أصحابها ، وكان بينهم حاكم المدينة وقضاتها وكبار أعيانها .

وكانت المفاجأة عاملا حاسما فى المعركة . فما إن ارتفعت الشمس فى الأفق ، حتى كانت جموع الغزاة تحتل الثكنات والقصور وتسوق الأسرى . وشوهدت الجثث ملقاة فى الطرق وفى الثكنات وقد سالت دماؤها . وذاع فى أرجاء المدينة والحقول

القريبة ، أن كاموس بن سيكننرع اقتحم سيبين بجيش جرار واستولى عليها .

فاشتعلت على الفور ثورة دامية ، وهاجم الأهلون بيوت الرعاة يقتلونهم ، فهام كثيرون منهم على وجوههم فزعين ، كما فعل المصريون ، من قبل ، حين زحف أبوفيس من الشمال بعجلاته .

وقبض الجيش على ناصية الحال ، ودخل الملك كاموس على رأس جيشه ، تخفق على رأسه الأعلام المصرية ، وتسير بين يديه قوات الحرس بموسيقاها ، فهب أهل سيبين يستقبلونه . وكان يوما مجيداً ..

وتقدم عدد غفير من شباب المدينة يطلبون التطوع فى الجيش بحماسة فائقة . فسرّ كاموس ، وولى على المدينة شاو أحد رجاله . وأمره أن ينظم المتطوعين ويدرّبهم لينضموا إلى الجيش . وأحصى القواد ما غنموه من العجلات والجياد ، فإذا هو شىء عظيم .

واقترح الحاجب حور على الملك ، أن يتقدموا دون توانٍ ، حتى لا يدعوا للعدو مهلة للاستعداد وحشد الجيوش . وقال :

ـ سنخوض أول معركة حقيقية فى أمبوس .

فقال كاموس :

ـ نعم ياحور ، ولا يستبعد أن يكون عشرات الفارين قد طرقوا أبواب أمبوس الآن ، فتضيع علينا المفاجأة . فهيا إلى المسير .

وزحفت القوات المصرية ـ البرية والنيلية ـ صوب الشمال فى طريق أمبوس . ولم تلق أية مقاومة فى القرى الكثيرة التى دخلتها . وعلم الملك أن الرعاة يحملون متاعهم ويسوقون حيواناتهم فارين إلى أمبوس .

وخرج الفلاحون يستقبلون جيش الخلاص ، ويحيون مليكهم ، ويدعون له من قلوب أنعشها الفرح والأمل .

وسار الجيش حتى اقترب من أمبوس . وجاءت طلائع الكشافة تفيد بأن العدو يعسكر فى جنوب المدينة متأهباً للقتال ، وأن أسطولا متوسط العدد يرسو غرب أمبوس . فأدرك كاموس أن أول معركة مهمة باتت على الأبواب . ورغب الملك فى أن يعرف عدد جنود عدوه . ولكن تعذّر ذلك على الكشافة . واختلف الرأى بين

قائد شاب يدعى محب ، وبين الحاجب حور . الأول يقدرهم ببضعة آلاف . والثانى يراهم أكثر ، ويرجّح أن الرعاة جعلوا من أمبوس مركزا للدفاع عن البلاد المجاورة للحدود .

فقال الأمير أحمس :

ـ أرى ، يامولاى ، أن نهاجم بقوات كثيفة لا تقاوم ، وأن نقذف بمعظم قواتنا فى المعركة لنضرب العدو الضربة القاضية فى أقصر وقت . فنذهل قواته التى يحشدها فى طيبة الآن ، وتفزع وتحس أن الموت ينتظرها فى قتالنا . ولا خوف علينا من المخاطرة ، فجيشنا سوف يتضاعف بالمتطوعين الذين سينضمون إليه فى كل بلد نستردّه . أما عدونا فلن يجد عوضا عن خسارته .

وصار الجيشان لا يفصل بينهما سوى ميدان فسيح . وكان الرعاة رجال حرب ونزال . وكانوا يستهينون بالمصريين استهانة متأصلة . فبدأوا بالهجوم عليهم ، وهم يجهلون قوتهم ، وأرسلوا عليهم فرقة العجلات المكونة من مائة عجلة حربية .

أصدر كاموس أمره بالهجوم المضاد . فاندفعت قوات من العجلات تزيد على ثلاثمائة ، وأطبقت على قوات العدو . وصهلت الخيل ، ودار قتال عنيف . وعزم الأمير أحمس على أن يقضى على العدو القضاء المبرم ، فاندفع بمائتى عجلة جديدة ، وتبعته قوات من فرقة القسىّ وأخرى من حملة الرماح . وانقضت العجلات على مشاة الرعاة ، فاخترقت صفوفهم ، وألقت فيها الاضطراب والفزع ، وانهالت عليهم بالسهام كالمطر ، فتشتت شملهم بين قتيل وجريح وهارب ، فتلقفتهم قوة المشاة المهاجمة ـ فى كثرة لا تقاوم ـ وقضت عليهم القضاء الأخير. وذُهِل العدو الذى لم يكن يتوقع أن يلاقى قوات بهذا العدد . وانهارت قواته سريعا ، وتساقط فرسانه ، وتحطّمت عجلاته ، وسيطر المصريون على الميدان فى زمن يسير لا يُصدّق .

وقف الملك كاموس وسط الميدان على عجلته ، يحيط به القواد ، وإلى يمينه الأمير أحمس وإلى يساره الحاجب حور . وكانت الأنباء قد جاءته بأن أسطوله هاجم سفن العدو بشدة ، وأنها تقهقرت أمامه بدون انتظام . فسرّ الملك وقال لمن حوله مبتسماً :

ـ بدْءٌ موفق .

فقال الأمير أحمس ، وكان معفّر الثياب ، مغبّر الوجه ، متصبّبَ الجبين عرقا :

ـ أتوق لمعارك أشد هولا .

فقال له كاموس ، وهو يلقى نظرة إعجاب على وجهه الجميل :

ـ لن يطول انتظارك .

ثم نزل الملك عن عجلته وتبعه رجاله ، وسار حتى صار وسط جثث الرعاة ، وألقى عليها نظرة ، وقد خضبت الدماء وجوهها البيضاء ولحيّها الكثة ، ومزّقتها السهام والرماح . ثم نظر إلى من حوله ، وقال بصوت فيه بأس وقوة :

ـ ستمتحن قوتنا فى معركتين شديدتين .. فى طيبة وهواريس .

فإذا انتصرنا فيهما طهّرنا الوطن من الرعاة إلى الأبد ، ورددنا مصر إلى عهد أمنمحتب المجيد . فمتى نقف موقفنا هذا فى هواريس .. آخر حصن للرعاة ؟ .

وتحوّل الملك ليرجع إلى عجلته . وفى تلك اللحظة ، انتصبت جثة ـ من بين الجثث ـ واقفة بسرعة البرق ، وسدّدت قوسا نحو الملك وأطلقت سهما .

ولم يكن فى الوسع منع القضاء ، فأصاب السهم صدر الملك ، وصرخ الرجال حوله صرخة الفزع ، وأطلقوا السهام على رجل الهكسوس ، وهرعوا إلى الملك بقلوب يملؤها الرعب والإشفاق . وكان كاموس ، قد أطلق من صدره آهة عميقة ، ثم ترنح وسقط بين يدى وليّ عهده أحمس . فصاح الأمير :

ـ أحضروا هودجا ، وادعوا الطبيب .

ومال برأسه على أبيه ، وقال بصوت متهدّج :

ـ أبتاه .. أبتاه .. ألا تستطيع أن تكلمنا ؟ .

وجاء الطبيب على عجل ، ومعه الهودج . فحملوا الملك وأناموه عليه فى عناية بالغة . وركع الطبيب إلى جانبه ، ومضى يخلع درعه وسترته ليكشف عن صدره . وأحاطت الحاشية بالهودج فى سكون ، يدورون بأعينهم بين وجه الملك الشاحب ويدى الطبيب .. نزع الطبيب السهم ، وكان الدم يتدفق من الجرح بغزارة . فتقلص وجه الملك من الألم . فأظلمت عينا الأمير أحمس من الحزن ، وتمتم حور قائلا :

ـ رباه .. الملك يتألم .

وغسل الطبيب الجرح . ووضع عليه الحشائش . ولكن الملك لم يبد عليه أى

صفحة فارغة

تحسن . وارتعشت أطرافه ، ثم تنهدّ تنهدة عميقة ، وفتح عينيه ، فلاحت فيهما نظرة قاتمة لا تدل على الحياة .

فازداد صدر أحمس انقباضًا ، وحرّك الملك عينيه حتى استقرّتا على وجه أحمس . فلاحت فيهما ابتسامة ، وقال بصوت ضعيف يكاد لا يسمع :

ـ ظننت قبل حين أنى سأبلغ هواريس ، ولكن الرب يريد أن تنتهى رحلتى على أبواب أمبوس .

فصاح أحمس بصوته الحزين :

ـ فدتك نفسى يا أبتاه ..

فقال الملك بصوته الضعيف :

ـ كلا . احفظ نفسك . فما أشد الحاجة إليك .. وكن أشد حذرًا منى .. وواصل الكفاح ، حتى تسقط هواريس حصن الرعاة الأخير ، ويجلو القوم عن كل ديارنا .

وخشى الطبيب على الملك من جهد الكلام، وأشار عليه بالسكوت. ولكن الملك كان يندمج فى إحساس علوى، فقال بصوت تغيّرت نبراته، وبدا له وقع غريب :

ـ قل لتوتيشيرى إنى لحقت بأبى .. باسلاً مثله .

ومد يده لابنه ، فركع الأمير على ركبتيه ، وضمّها إلى صدره ، وقبض الملك على منكبه يودعه . ثم تراخت أصابعه وأسلم الروح ...

٤

غطى الطبيب الجثة ، وسجد الرجال حولها ، وصلوا صلاة الوداع . وجاء القواد ، فحيوها وانحنوا لأحمس .. الملك الجديد .

ودخل الجيش أمبوس ، يتقدمه نعش الملك كاموس . وكان الخبر الفاجع قد عمّ المدينة كلها ، فجرعت لذة النصر ولوعة الحزن فى شربة واحدة . وسجد الناس للملك الجديد أحمس فى سكون وخشوع . وتسلّم كهنة أمبوس الجثمان العظيم .

خلا أحمس إلى نفسه ، وكتب رسالة إلى توتيشيرى ، كما أوصاه أبوه . وبعث بها مع رسول .

جاءت الرسل بأخبار سارة ومؤسفة معًا عن الأسطول . فقد هزم الأسطول المصرى أسطول الرعاة وأسر بعض وحداته . ولكن القائد قمكاف سقط قتيلاً . وقد أدار الضابط أحمس أبانا المعركة بعد سقوط قمكاف . وأحرز النصر النهائى . وقتل قائد الرعاة بيده فى معركة عنيفة . فكافأه الملك أحمس . وأصدر أمره بتوليته قيادة الأسطول .

اتبع الملك أحمس سياسة أبيه الحكيمة . فولىّ صديقه هام حكم أمبوس . وعهد إليه بتنظيمها . وتجنيد القادرين من أهلها . وقال له أمام حاشيته وقواده :

ــ لقد آليت على نفسى . منذ اليوم الذى سعيت فيه إلى أرض مصر فى ثياب التجار ، أن أجعل مصر للمصريين . فليكن هذا شعارك فى حكم هذا البلد .

ثم قال للحاجب حور :

ــ فلنتقدم سريعًا بقواتنا .

٥

غادر الجيش أمبوس عند الفجر . وأبحر الأسطول . ومضت الطلائع تدخل القرى فتستقبل فيها أحرّ استقبال ، حتى شارفوا أبولبتوبوليس ، فتأهبوا لخوض معركة جديدة . ولكن الطلائع لم تلق أية مقاومة . ودخلت المدينة بسلام . وكانت وحدات الأسطول تنحدر مع مياه النيل فى ريح مواتية ، فلا تجد أثرًا لسفن العدو . فأشار حور ــ وهو الحذر بطبعه ــ على الملك أن يرسل بعض القوات الكشفية إلى الحقول الشرقية ، خشية أن يكون العدو أقام كمينًا ، فيقعوا فيه . وبات الجيش والأسطول فى أبولبتوبوليس ، وفارقاها مع الفجر . وكان الملك وحرسه يسيرون فى مقدمة الجيش ووراء قوات الاستطلاع . وسأل الملك حور :

ــ ألسنا سائرين الآن إلى هيراكونبوليس ؟.

فقال الحاجب حور :

ــ بلى يا مولاى . وهى مركز الدفاع الأمامى عن طيبة نفسها . وستنشب فى واديها أول معركة شديدة بين القوتين .. قوتنا وقوة الرعاة .

وحين الضحى ، جاءت أنباء كشفية بأن الأسطول المصرى اشتبك مع أسطول للرعاة ، لعلّه ـ لضخامته وكثرة وحداته ـ هو الأسطول الكامل للعدو . وذكرت الأنباء أن المعركة تدور بقوة وعنف . فاتجه الملك بنظره نحو النيل فى الغرب ، وبدا على وجهه الجميل الرجاء والأمل . وقال حور :

ـ الرعاة يا مولاى حديثو عهد بحرب الأساطيل .

فصمت الملك ولم يجب . ومضت الشمس ترتفع إلى كبد السماء ، والجيش يتقدم بفرقه ومعداته . فاستسلم أحمس للتأمل والتفكير فى أسرته ، وهى تتلقى نبأ مقتل كاموس ..

رباه .. لقد سقط كاموس غدرًا ، وخسر جيشه بسالته وخبرته ، وأورثه تركة مثقلة بالواجبات الجليلة .. ثم سرح خياله إلى الأمام .. إلى طيبة ، حيث يعانى الشعب العذاب والذل من حكم أبوفيس . وتذكر الحاكم خنزر ، الذى لن تهدأ نفسه حتى ينتقم لجدّه الشهيد منه ، ويرديه قتيلاً . ثم لاحت لخاطره الأميرة أمنريدس ، وتساءل : ألا تزال تتعلق بالتاجر الجميل أسفينيس ، وتأمل أن يفىَ لها بوعده ؟.

وهنا سعل حور ، فذكّره بأنه لا ينبغى له أن يتشوق إلى الأميرة ، وهو على رأس الجيش الزاحف لتطهير مصر من قومها . فطارد الفكر ، وألقى ببصره على جيشه العرمرم ، واتجه بتفكيره إلى المعركة الدائرة فى النيل .

عند منتصف النهار ، جاءت رسل الاستطلاع تقول :

ـ الأسطولان مشتبكان فى قتال عنيف ، والقتلى من الجانبين يسقطون بكثرة ، والقوتان متعادلتان ، ويستحيل التكهّن بنتيجة المعركة .

ظهر العبوس على وجه الملك ، ولم يُخْفِ قلقه ، فقال حور :

ـ لا داعى للقلق يا مولاى ، فأسطول الرعاة قوة لا يستهان بها . وأسطولنا يخوض الآن المعركة الفاصلة فى النيل .

فقال أحمس :

ـ وإذا خسرناها خسرنا نصف الحرب .

فقال حور بثقة :

ـ وإذا كسبناها يا مولاى ، كما أتوقع ، كسبنا الحرب كلها .

حل المساء ، والجيش على بعد بضع ساعات من هيراكونبوليس فتوقف للراحة والاستعداد . وبعد وقت قصير ، جاءت الأخبار بأن الطلائع تقاتل قوات متفرقة من جيش العدو . فأمر الملك بإرسال قوة من العجلات لتدعم قوات الاستطلاع .

كان أحمس يحس بالمسئولية الخطيرة التى يتحملها ، بقيادته الجيش لأول مرة فى حياته . وشعر بأنه حامى هذا الجيش ، والمسئول عن مصير مصر إلى الأبد . فقال لحور :

ـ ينبغى أن نوجه قوتنا لتحطيم عجلات الرعاة .

فقال حور :

ـ هذا ما سيحاوله كل من الجيشين . وإذا حطّمنا عجلات العدو ، وسيطرنا على ميدان المعركة ، أصبح جيشه تحت رحمة قسيّنا .

وفيما أحمس يتأهب لخوض غمار المعركة ، جاءه رسول من ناحية النيل ، وأخبره أن الأسطول المصرى تلقى ضربات شديدة ، فرأى أحمس أبانا أن يتقهقر بوحداته الأساسية ليعيد تنظيمها ، وأن القتال مستمر على أشدّه .

ساور القلق الملك أحمس ، وخَشِىَ من ضياع أسطوله العظيم . ولم يجد مهلة للتفكير ، إذ أُخْبِر أيضًا أن جيش العدو بدأ هجومه . فتقدم بحرسه ، وأمر فرقة العجلات بالهجوم ، فهجم الجيش فى قلب وجناحين ، اندفعوا صفوفًا متراصّة ، فى سرعة وجلبة زلزلت الأرض زلزالاً . وما لبثوا أن رأوا جيش الرعاة يتقدم منقضًّا كالريح العاصفة ، فى جموع كثيفة من العجلات . فأدركوا أن عدوهم يلقاهم بقواته الوحشية ، التى طالما سامتهم الإذلال والقهر . فثار الغضب فى نفوسهم ، وصاحوا بصوت كالرعد «حياة أمنمحيت أو ميتة سيكنزع» . وألقوا بأنفسهم فى المعركة ، بقلوب تتعطش إلى القتال والانتقام . وقاتل الفريقان بقوة ووحشية وقسوة . وخضبت الأرض بالدماء . واختلط صياح الجنود بصهيل الخيل وعزف القسىّ .

استمر القتال عنيفًا قاسيًا حتى غربت الشمس ، وحلّقت فى الفضاء أشباح الظلام . فكفّ الجيشان ، ورجع كلٌّ إلى معسكره . وكان أحمس يسير وسط دائرة من حرسه ، الذين دافعوا عنه فى أثناء كرّه وفرّه . واستقبله رجاله وعلى رأسهم حور . فقال لهم :

ـ كان قتالاً عنيفًا كلّفنا أبطالاً بواسل .

ثم تساءل الملك :

ـ أما من جديد عن أسطولنا ؟.

فقال حور :

ـ قاتل فى أثناء النهار وهو يرتدّ ، ثم التحمت أكثرية السفن مع وحدات العدو بالسلالم ، فلم تستطع الانفصال حين خيّم الظلام . والقتال لا يزال مستمرًا . ونحن فى انتظار ما يجدّ من أخبار .

تجهم وجه الملك المتعب ، وقال لمن حوله :

ـ لندع الرب جميعًا ، أن ينصر إخواننا الذين يقاتلون على سطح النيل .

٦

استيقظ الجيش مع طلوع الفجر ، وجاءت رسل الاستطلاع بأخبار مهمة . قالوا : الحركة لم تسكن طوال الليل فى معسكر العدو . وقوات جديدة من الرجال والعجلات ، كانت تتدفق طوال الليل على هيراكونبوليس .

وفكر حور مليا ، ثم قال :

ـ العدو ، يا مولاى ، يجمع قواته هنا ليلقانا بجيشه كاملا ـ ولا أعجب لذلك . لأننا إذا اقتحمنا أبواب هيراكونبوليس ، فسيكون الطريق أمامنا مفتوحًا حتى أسوار طيبة المجيدة .

جاءت أخبار سارة من جانب النيل قاتل الأسطول قتال المستميت ، حتى طرد جنود العدو من السفن التى كانوا نزلوا بها . فاضطر أسطول الرعاة أن ينفصل ويبتعد بعد أن خسر ثلث قوته . وكفّ الأسطولان عن القتال ساعات . ثم اشتبكا فى معركة جديدة بعد الفجر . وكان أسطول أحمس أبانا البادئ بالهجوم . فانشرح صدر الملك ، وتوثب للقتال بقلب يملؤه الفرح .

حين أسفر الصبح ، تقدم الجيشان للقتال . وبرزت صفوف العجلات ، وصاح المصريون صيحتهم المعروفة «حياة أمنمحيت أو ميتة سيكننرع» . ثم ألقوا بأنفسهم فى

معترك الموت ، والتقوا بالعدو فى صدمات قاتلة ، واشتدوا عليه كما اشتدّ عليهم : وقاتلوا بالأقواس والرماح والسيوف . وفيما القتال يشتد ، لاحظ الملك أحمس أن قلب جيش العدو يدير المعركة بمهارة فائقة ، ويرسل القوات هنا وهناك بانتظام ودقة . فتفحصّ القائد البارع الذى يدير ذلك ، فإذا به أبوفيس نفسه ، الذى أهدى إليه التاج المرصّع بالجواهر فى قصر طيبة ، بجسمه البدين ولحيته الطويلة وبصره الحاد . فتحفّز أحمس لهجمات شديدة ، وقاتل قتال الأبطال البواسل ، وحرسه يردون عنه هجمات العدو . فلم يلق فارسًا من العدو إلّا صرعه فى غمضة عين ، حتى هابوا نزاله ويئسوا من التغلّب عليه . وطال أمد القتال . واندفعت إلى ميدان المعركة قوات جديدة من الجانبين . واستمر القتال على عنفه وشدته ، حتى أوشك النهار أن ينتهى . وفى تلك الساعة ، وقد أنهكت قوى الطرفين ، انقضت قوة من عجلات الرعاة بقيادة رجل شديد البأس ، على الجناح الأيسر للمصريين ، وضغطته ضغطًا شديدًا ، لم تُفِدْ معه المقاومة المنهوكة القوى . ومضت القوة المنقضّة تصنع لنفسها ثغرة ، لتندفع منها وتطوّق القوة المحاربة أو تهجم على المشاة .

أدرك أحمس أن ذلك القائد ذا البأس الشديد ، تحيّن فرصة مناسبة فى تعبهم ، وأنه ادخر قوته ليضرب ضربة قاضية . وخشى أن يظفر هذا القائد بغرضه ، فيوقع الاضطراب فى صفوف جيشه المتراصة، أو يوقع مذبحة فى مشاته . فرأى أن يقتحم قلب العدو بقوته ، فيجد القائد الداهية نفسه شبه محاصر . ولم يتردد أحمس ، لأن الموقف كان خطيرًا دقيقًا . وهجم على القلب بحركة فجائية قوية ، واشتد القتال إلى درجة مروّعة مفزعة . واضطر العدو أن يتقهقر تحت الضغط الشديد . وعندئذ ، أرسل أحمس قوة من العجلات لتطويق القوة التى تشتد على جناحه الأيسر . ولكن القائد كان داهية بارعًا . فعدّل خطته ، بعد أن كاد يحدث الثغرة المطلوبة ، ورمى بقوة صغيرة من عجلاته لتواصل الهجوم ، وتقهقر هو وبقية القوة بسرعة إلى جيشه . وفى أثناء هذه العملية الدقيقة ، استطاع أحمس أن يرى القائد الجسور . إنه خنزر حاكم الجنوب ببنيانه المتين وعضلاته الفولاذية : وقد كلّفت هجمته الجبارة ، المصريين قتلى كثيرين من زهرة فرسان العجلات . وانتهى القتال بعد ذلك بقليل . فعاد أحمس وجيشه إلى معسكرهم . وكان أحمس يقول متوعّدًا غاضبًا

«لابد أن نلتقى يا خنزر وجهًا لوجه» .

وفى المعسكر ، فوجئ الملك أحمس بوجود أحمس أبانا : فتفاءل من وجوده ، وسأله :

ـ ماذا وراءك أيها القائد ؟.

فقال أحمس أبانا :

ـ النصر يامولاى . لقد أوقعنا الهزيمة بأسطول الرعاة . وأسرنا أربع سفن كبيرة ، وفر الباقى ، ومعظمه سفن صغيرة لا قيمة لها . فتهلل وجه الملك ، ووضع يده على كتف القائد أحمس أبانا ، وقال :

ـ لقد كسبت لمصر ، بهذا النصر ، نصف الحرب . وأنا بك جدّ فخور .

٧

استيقظ الجيش مرة أخرى عند مطلع الفجر . وأخذ فى التأهب والاستعداد . واستقبل الملك رجاله فى خيمته ، وقال لهم :

ـ لقد صح عزمى على مبارزة خنزر .

ففزع حور لهذا القول . وتوسّل كل قائد إلى الملك أن يقوم هو بقتال حاكم الجنوب . ولكن أحمس شكرهم ، وقال لحور :

ـ لا يُقْبَل منى أن أضيّع فرصة بين يدىّ ، لأواجه قاتل سيكننرع . فدعنى أقاتله حتى أقتله . فأوفى دينا فى عنقى نحو روح تراقبنى . ولتنزل لعنة الرب بالمترددين الحائرين .

وأرسل الملك ضابطا ليعرض على خصمه رغبته . فذهب الضابط إلى وسط الميدان ، وصاح :

ـ أيها العدو . فرعون مصر يريد مبارزة القائد خنزر لتسوية حساب قديم .

فبرز له رجل من كتيبة خنزر ، وقال له :

ـ قل لمن تسميه فرعون . القائد خنزر لا يحرم عدوا من شرف الموت بسيفه .

فامتطى أحمس صهوة جواد كريم ، يحمل سيفه ورمحه . ونخس الجواد ، فجرى

صفحة فارغة

به إلى الميدان . ورأى عدوه ينطلق نحوه على جواده متباهيا ، وجسمه يبدو مثل كتلة الجرانيت . تقاربا رويدا رويدا ، حتى كاد رأسا جواديهما أن يتماسا . وأبصر كل منهما خصمه . فلم يتمالك خنزر من الدهشة ، وصاح بغرابة :

ـ رباه .. من أرى أمامى ؟ أليس هو أسفينيس تاجر الأقزام واللآلئ ؟ يالها من دعابة ؟ أين تجارتك أيها التاجر أسفينيس ؟ .

وكان أحمس ينظر إليه فى هدوء وسكينة ، وقال له :

ـ انتهى أسفينيس أيها القائد خنزر . وليس لى تجارة الآن سوى هذا ..

وأشار إلى سيفه ، فملك خنزر عواطفه ، وسأله :

ـ فمن تكون إذن ؟ .

فقال أحمس ببساطة وهدوء :

ـ أحمس فرعون مصر ..

فضحك خنزر ضحكة عالية دوت فى الميدان ، وقال ساخرا :

ـ ومن الذى ولاّك مصر ، وهنا ملكها يحمل التاج المزدوج الذى أهديته إليه ساجدا ؟ .

فقال أحمس :

ـ ولاّنى الذى ولىّ آبائى وأجدادى . واعلم أيها القائد أن الذى يبارزك هو حفيد سيكننرع .

فبدا الجد على وجه الحاكم ، وقال بهدوء :

ـ سيكننرع ؟ هل هو ذلك الرجل الذى قضى سوء حظه يوما أن ينازلنى ؟ اعذرنى على بطء فهمى .. ولكن هل ترغب حقا فى مبارزتى ياأسفينيس ؟ .

فقال أحمس بحدة .

ـ لا تقل لى أسفينيس . فأنا أحمس بن كاموس بن سيكننرع ، أسرة عريقة ، انحدرت من صلب طيبة المجيدة ، فلم تعرف مثلكم رعى القطعان ولا التشرد فى الصحارى . وأرغب حقا فى مبارزتك وإنه لشرف سوف تكتسبه .

فصاح خنزر قائلا :

ـ أرى الغرور يعميك عن معرفة قدر نفسك . وظننت أن انتصارك على القائد

رخ يسوّغ لك الوقوف أمامي . فوارحمتاه لك أيها الشاب المغرور . ماذا تختار أن يكون سلاحك ؟ .

فقال أحمس ، والابتسامة الساخرة ترتسم على فمه :

ـ السيف إذا شئت .

فقال خنزر ، وهو يهز كتفيه العريضين :

ـ هو أعز الأصدقاء .

ونزل خنزر عن ظهر جواده ، وأسلمه إلى تابعه . ثم سلّ سيفه وأمسك بترسه . وفعل أحمس مثله . ووقفا صامتين يفصل بينهما مقدار ذراعين . ثم تساءل أحمس :

ـ هل نبدأ ؟ .

فقال خنزر ضاحكاً :

ـ ما أجمل هذه المواقف التى تتصارح فيها الحياة والموت ، هلمّ يافتى ...

فتوثّب الملك ، وهاجم خصمه الضخم بشجاعة ، ووجه إليه ضربة شديدة تلقاها الحاكم على ترسه ، ثم رد عليه الهجوم وهو يقول :

ـ يالها من ضربة صادقة ياأسفينيس .. رنين سيفك على ترسى ، يذكّر بلحن الموت .. مرحى .. صدرى يرحب برسل الموت ، وما أكثر ما طمع الموت فى ، وأنا ألعب بين مخالبه .. ثم يرتدّ عنى خائبا ، بعد أن يدرك أنه جاء لغيرى .

وكان الرجل يقاتل ، دون أن يكف عن الكلام ، كأنه راقص ماهر ، يغنّى وهو يرقص . فأدرك أحمس أن خصمه عنيد شديد اليأس فولاذى العضلات ، واسع الحيلة ، خفيف الحركة ، جبّار فى الكرّ والفرّ . فبذل أحمس كل ما لديه من قوة ودراية . ولكنه تلقى ضربة بترسه أحسّ بثقلها ، ورأى خصمه يبتسم فى ثقة وطمأنينة ، فأهاج الغضب أحمس ، وأثاره الغيظ الشديد ، ووجه ضربة هائلة ، تلقاها الرجل بدوره على ترسه ، وهو هادئ الأعصاب ، وسأل أحمس :

ـ أين صُنِع هذا السيف المتين ؟ .

فقال له أحمس :

ـ فى نباتا فى أقصى الجنوب .

فقال الرجل وهو يتفادى ضربة شديدة وجهها أحمس إليه بمهارة فائقة :

ـ أما سيفى ، فقد صُنِع فى منف بأيدى صناع مصريين .

ولم يكن صانعه يعلم بأنه يصنع لى ما سوف أقضى به على مليكه ، الذى تاجر وقاتل من أجله .

فقال أحمس :

ـ ما أسعده غدا عندما يعلم أن السيف الذى صنعه كان شؤما على عدو بلاده .

كان أحمس يتحيّن الفرصة لهجوم عنيف يفاجئه به . فما كاد يتم كلامه ، حتى وجّه إلى خصمه الجبار ثلاث ضربات متتالية بسرعة خاطفة ، فتفاداها خنزر بدرعه وسيفه ، ولكنه اضطر أن يتقهقر خطوات . فقفز عليه أحمس ، وهاجمه هجوما قاسيا ، ووجه إليه الضربة تلو الضربة . وأدرك خنزر خطر المصير . فكفّ عن مداعبة خصمه ، وأطبق فمه ، وزال عنه الابتسام وقطّب جبينه ، ودافع هجمات عدوه بقوة جبارة وبسالة هائلة ، وأبدى من ضروب المهارة والشجاعة مايفوق كل تصور . وأصاب حدّ سيفه خوذة أحمس ، وظن الرعاة أنه قضى على عدوهم العنيد أحمس ، فتعالى هتافهم . ولكن أحمس لم يحس تخاذلا ولا وهنا ، واستجمع قواه ، وضرب عدوه ضربة قوية عنيفة ، أسقطت الترس من يده ، وتعالى الهتاف من الجانبين ، بين فرح وغضب . وتوقّف أحمس عن القتال ، ونظر إلى خصمه مبتسما ابتسامة الظفر . وكان خنزر يشهر سيفه ، ويتأهب للقتال بغير ترس . فما كان من أحمس إلا أن خلع ترسه ، ورمى به جانبا . فبدت الدهشة على وجه خنزر ، ونظر إليه نظرة غريبة ، وهو يقول :

ـ ياله من نبل يليق بأخلاق الملوك .

واستأنفا القتال فى سكون . فتبادلا ضربتين شديدتين . ولكن ضربة أحمس كانت أسرع إلى رقبة خصمه الجبار ، فسرت فيه رجفة هائلة ، وتراخت يده عن مقبض سيفه ، ثم سقط على الأرض كأنه بنيان تهدّم . ودنا أحمس منه فى خطى بطيئة ، ونظر إلى وجهه بعين ملؤها الاحترام ، وقال له :

ـ يالك من جبّار باسل أيها الحاكم خنزر .

فقال الرجل ، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة :

ـ بالحق نطقت أيها الملك . ولن يعترض سبيلَك من بعدى مقاتل .

وتناول أحمس سيف ختزر ، ووضعه إلى جانب جثته . ثم امتطى جواده وعاد إلى معسكره ، وهو يدرك أن الرعاة سيحاربون بعنف رغبة فى الانتقام . فأقبل على فرسانه ، وصاح بهم :

ـ أيها الجنود ، رددوا شعارنا الخالد : « حياة امنمحيت أو ميتة سيكننرع » . فلا تضيعوا صبر الأعوام وجهاد الأجيال فى تخاذل ساعة واحدة .

ثم حمل وحملوا . ودار القتال عنيفا حتى مغيب الشمس . واستمر القتال على هذا النحو عشرة أيام .

٨

فى مساء اليوم العاشر ، عاد الملك أحمس من ميدان المعركة متعبا منهوك القوى ، فاجتمع بحاشيته وقواده . وكان مصرع ختزر قد ألحق بجيش الرعاة خسارة لا تعوّض . ولكن فرقة عجلاتهم ظلت تقاوم ، وتصد هجمات المصريين ، وتوقع بهم خسائر فادحة . فساور الملك القلق . وكان فى ذلك المساء غاضبا حزينا لكثرة من سقطوا من فرسانه البواسل . الذين تصدّوا للموت بغير مبالاة . فقال ، وكأنه يحدث نفسه :

ـ هيراكونبوليس .. ترى هل يقترن اسمك بانتصارنا أم بهزيمتنا ؟ .

كان المجتمعون لا يقلّون عنه حزنا وغضبا . وحاول الحاجب حور أن يقلل من وقع الخسائر ، ويؤكد :

ـ سوف نحطم غدا عجلات العدو . ولن يكون لمشاته قدرة أمامنا . وسيلوذون بأسوار الحصون فرارا من انقضاض عجلاتنا عليهم .

طلب الملك الإحصاء الأخير للخسائر . جاء ضابط به . فإذا بفرقة العجلات المصرية قد خسرت ثلثى قوتها من العجلات والفرسان . فامتقع وجه أحمس . ونظر فى وجوه رجاله . فإذا الوجوم يعلوها جميعا . فقال :

ـ لم يبق لدينا سوى ألفى فارس . فكيف تقدرون خسائر العدو ؟ .

فقال القائد ريب :

ـ لا أتصور يامولاى أنها تقل عن خسارتنا . وأرجّح أنها تزيد عليها .

فحنى الملك رأسه ، ولبث يفكر مليا ، ثم نظر إلى رجاله وقال :

ـ سيُعْلم كل شيء غدا . فغدًا يوم الفصل دون شك .

ولعل عدونا يعانى من القلق والحيرة ما نعانى وأكثر . وعلى كل حال ، لن يلومنا أحد ، ولن نلوم أحدا . والرب يعلم أننا نقاتل بقلوب مستعذبة الموت .

فقال ريب متسائلا :

ـ أسطولنا لا يحارب الآن .. فلماذا لا يُنزل جنودا وراء جيش العدو ؟ .

فقال أحمس أبانا :

ـ أسطولنا يسيطر الآن على النيل سيطرة كاملة .. ولكننا لا نستطيع أن نجازف بإنزال جنود وراء العدوّ إلا إذا كان جيشه مشتبكا جميعه فى القتال . والواقع أن القتال مقصور حتى الآن على فرقتى العجلات . أما باقى جيش العدو فرابض وراء الميدان مستريحا يقظا ..

دار نقاش حول احتياطى الفرسان . فقال الملك أحمس :

ـ جئنا مصر بستة آلاف فارس ، هم ثمرة جهاد شاق وصبر طويل . فخسرنا منهم أربعة آلاف رجل فى اثنى عشر يوما من أيام الجحيم .

حاول حور أن يبث الطمأنينة بأن قال :

ـ إن مدن سبين وأمبوس وأبولنيوبوليس تبنى العجلات ، وتدرّب الفرسان بلاتوان..

قال أحمس أبانا بحماسه الذى لا يعرف اليأس :

ـ حسْبنا شعارنا الذى لقنتنا إياه الأم المقدسة توتيشيرى « حياة أمنمحيت أو ميتة سيكننرع » . وفرساننا سوف لا يُغْلبون . ومشاتنا يتحرقون شوقا إلى القتال . والرب لم يرسلك إلى أرض مصر عبثا.

أمّن الرجال على قول القائد الشاب . وابتسم الملك ابتسامة مشرقة. وبات الجيش ليلته ، واستيقظ مع الفجر كعادته ، وتأهب للقتال .

عند تباشير الصباح ، تقدمت فرقة العجلات ، وفى قلبها الملك وحرسه . نظر إلى الميدان فرآه خاليا .. فتعجب غاية العجب . ثم أمعن النظر ، فرأى على البعد أسوار

هيراكونبوليس ، لا يعترض سبيله إليها أحد من الرعاة . ولم تطل الدهشة . وجاء رجال الاستطلاع يبلغون الملك أن جيش أبوفيس انسحب من الميدان بجموعه الجرارة ، وترك هيراكونبوليس فى الليل مسرعا نحو الشمال . فقال القائد محب :

ـ الآن حصحص الحق . فما من شك أن قوة عجلات الرعاة تحطمت . وأن أبوفيس رأى أن يفر إلى حصونه خوفا على مشاته من فرساننا .

وقال القائد ريب فرحا :

ـ لقد كسبنا موقعة هيراكونبوليس الهائلة ..

فقال الملك :

ـ بل قل إننا حطّمنا عجلات الرعاة ، وكفى .

سرت الأخبار إلى الجيش ، فشاع الفرح فى النفوس .

دخل أحمس مدينة هيراكونبوليس على رأس جيشه ، وهرع معه الأهالى الذين كانوا قد فروا إلى الحقول خوفا من انتقام الرعاة . واستقبلوا ملكهم استقبالا حارا ، وهتفوا لجيش الخلاص هتافا يشق عنان السماء ..

كان أول شيء فعله الملك أن صلى للرب آمون .. الذى أمده بالعزيمة بعد أن كاد يشرف على اليأس ..

٩

استراح الجيش فى هيراكونبوليس بضعة أيام بعد قتال عنيف دام اثنى عشر يوما . وأشرف أحمس بنفسه على تنظيم المدينة ، وأعاد إلى حكومتها ومزارعها وأسواقها ومعابدها مصريتها الأولى . وواسى الأهالى لما تعرضوا له من الاضطهاد ، وما تعرضت له مدينتهم من النهب والسلب والتخريب ، فى أثناء تقهقر الرعاة .

زحف الجيش نحو الشمال ، وأبحر معه الأسطول . ودخل مدينة نخب فى عصر اليوم نفسه دون مقاومة . وبات فيها حتى فجر اليوم التالى . ثم استأنف سيره دون أن يلتقى بأية قوات للعدو . وقص عليهم الأهالى كيف مرّ بهم جيش أبوفيس يحمل جرحاه ، وكيف حمل الرعاة من أصحاب الدور والمزارع ، أثاثهم وأموالهم ، وحثوا

بجيش مليكهم فى حالة شديدة من الفزع والفوضى .

ظل جيش مصر يتقدم بقواته المرهوبة ، يدخل المدن والقرى دون أدنى مقاومة . وكان خبر الهزيمة التى لحقت بفرقة عجلات الرعاة . ينعش نفوس الجند ، ويذكى فى قلوبهم الأمل والحماسة . فمضوا ينشدون الأغانى الحماسية ويضربون فى أرض الوادى ، حتى طالعتهم أسوار مدينة هابو المتوغلة فى منطقة طيبة . وكانت كسابقاتها ، من المدن ، بغير حراس ، فدخلها الجيش فى سلام .

تقدم الجيش شمالا بقلوب متحفزة متوثبة ، وهو يعلم أنه مقبل على المعركة الفاصلة التى تقرر مصيره ومصير طيبة . وانحدر فى الوادى العظيم الذى كان يسمى « طريق آمون » . وكان يتسع كلما أوغلوا فيه ، إلى أن بدا لهم السور العظيم ، سور طيبة ، تنطلق من خلفه المسلات وجدران المعابد والأبنية الشاهقة . فسرت فى النفوس عاصفة من الحماس والحنين ، وتصايحت جنبات الوادى بالهتاف « طيبة .. طيبة » . ومازالوا يهتفون ، حتى جرفتهم دموع الفرح ، فبكوا وبكى حور الشيخ .

عسكر الجيش العظيم . ووقف أحمس وسط الجيش ، يرفرف على رأسه علم طيبة الذى صنعته توتيشيرى بيديها ، ويرسل ناظريه إلى المدينة ويقول :

« طيبة .. طيبة .. ياأرض المجد .. ومثوى الآباء والأجداد . أبشرى ، فغدًا يطلع عليك صبح جديد .. » .

١٠

استدعى الملك القائد أحمس أبانا ، وقال له :

ـ سأعهد إليك بساحل طيبة الغربى ، تهاجمه أو تحاصره كما ترى ، تستلهم خططك من الظروف المحيطة بك .

أخذ الرجال يفكرون فى طريقة الهجوم على طيبة . هل يهاجمونها أم يحاصرونها ، ولكنهم رفضوا الحصار . فهم لا يستطيعون التفكير لحظة واحدة فى تجويع أهل طيبة . فليس أمامهم سوى مهاجمة أسوارها ، وإن كان ذلك سيكلفهم أرواحا غالية . لكنهم سيبذلونها عن طيب خاطر من أجل طيبة الغالية .

صفحة فارغة

تقدم الأسطول المصرى نحو شاطئ طيبة الغربى ، والتقى أمامه بأسطول للرعاة ، الذى جمعوه من السفن الفارة من هيراكونبوليس . واشتبك الأسطولان فى معركة عنيفة . وكان المصريون أكثر عددا فى الرجال والسفن ، فضيقوا الخناق على عدوهم . وأصلوه نارا حامية .

أرسل الملك أحمس طلائع من فرق القسىّ والرماح لاختبار القوات المدافعة . فوجدوا الرعاة قد ملأوا السور بالحراس الأشداء ، وبكميات أسلحة لا تنفد . فنظم القواد المصريون قواتهم ، وأرسلوا كتائب متتالية فى أرجاء الوادى لتهاجم السور فى نقط متباعدة . وصوبت قسيّها نحو فتحات السور المنيع ، محتمية بدروعها الطويلة . ولكن سهام العدو انهالت عليهم كالسيل ، ودار القتال بلا رحمة . وكان القواد يرسلون مجموعات متتابعة من الجنود المتحفّزين للقتال ، والذين كانوا يقاتلون بجسارة لا تهاب الموت . فدفعوا ثمن جرأتهم غاليا . وانتهى النهار بمذبحة هائلة . وقد روّع الملك بمنظر القتلى والجرحى ، فصاح غاضبا :

ـ جنودى لا يبالون الموت ، والموت يحصدهم حصدا .

فقال حور ، وبصره زائغ وهو ينظر إلى الميدان :

ـ يالها من معركة يامولاى .. الجثث تملأ الميدان .

كان القائد محب متجهّم الوجه ومعفّر الثياب ، فقال :

ـ ألسنا نهاجم الموت .

فقال أحمس :

ـ لن أدفع بجيشى إلى الهلاك المحقق ، ويحسن أن أرسل عددا محدودا من الرجال وراء القباب الواقية .

ظل الملك ثائر النفس . ولم يخفف عنه ما جاءه بأن الأسطول المصرى استولى على بقية أسطول الرعاة ، وأصبح سيد النيل دون منازع .

فى ذلك المساء ، عاد الرسول الذى كان قد بعثه إلى أسرته فى نباتا ، يحمل رسالة من توتيشيرى . فبسط أحمس الرسالة بين يديه . وقرأ فيها :

« جاءنى رسولك ينعى إلى فقيدنا الباسل كاموس ، ويبلغنى كلمته الأخيرة إلىّ ...

« لقد كُتب على قلبي أن يذوق الموت مرتين ، ولكن لا يصعب العزاء على من يعيش فى وقود معركة هائلة ، تُبذل فيها النفوس رخيصة ، ويتسابق الشجعان إلى الموت ..

« ولا أكتمك ـ رغم ألمى وحزنى ـ أن رسولا يأتينى بنبأ موت كاموس مع نصر جيشنا ، أحبّ إلىّ من أن يجيئنى كاموس نفسه حيا وجيشنا منهزم .

« فسر فى سبيلك ترعاك عناية الرب الرحيم ، ويحفظك دعاء قلبي والقلوب المجتمعة حولى .. يتنازعها الحزن والصبر والرجاء » .

قرأ أحمس الرسالة ، واستشف ما فى سطورها من ألم ممض ورجاء حار . وتمثلت له وجوه أسرته فى نباتا . وتمتم قائلا :

« رباه ! توتيشيرى تتلق طعنات الألم القاتل بالعزاء والأمل . ولا ينسيها حزنها أملنا المنشود . فلأذكر دائما حكمتها ، وأتبعها بعقلى وقلبى .

١١

بعد أسر أسطول الرعاة ، ضرب الأسطول المصرى الحصار حول شاطئ طيبة الغربى . وبث الرعب فى أصحاب القصور المطلة على النيل . وتبادل إطلاق السهام مع حصون الشاطئ . وكان أحمس أبانا تشتاق نفسه إلى شاطئ المدينة الجنوبى ، حيث يقيم الصيادون . ولكن الرعاة كانوا أكثر حذرا مما ظن ، فأخلوا الشاطئ من المصريين ، ونشروا فوقه حراسا مدرعين .

أما الملك أحمس ، فقد عدل عن الهجوم بجماعات كثيفة ، ودفع إلى الميدان بنخبة من رجاله المدربين يحتمون بالدروع الطويلة . ودخلوا فى سباق مع المدافعين عن السور العظيم ، فى حرب تقوم على الفن ودقة التصويب . واستمرت الحرب بضعة أيام ، دون أن تبشر بأية نتيجة . فتململ الملك ، وقال :

ـ ينبغى ألا نعطى العدو مهلة يستعيد فيها تنظيمه ، ويعيد بناء قوة عجلات جديدة .

ثم شدّ على مقبض سيفه ، وقال :

ـ سآمر باستئناف الهجوم العنيف ولنقدم أنفسنا للقتال كما ينبغى لرجال أقسموا أن يحرروا بلادهم . وسأرسل إلى حكام الجنوب لصنع دروع الحصار والقباب الواقية .

وأصدر الملك أمره بالهجوم . وأشرف بنفسه على توزيع فرق القسىّ والرماح فى الميدان الفسيح على هيئة قلب وجناحين . وجعل القائد محب على الميمنة ، والقائد ريب على الميسرة . ومضى المصريون يتقدمون فى موجات كبيرة تقاتل العدو المحتمى بالسور الرهيب . واستطاع المصريون أن يلحقوا بعدوهم خسائر فادحة ، كما خسروا عددا كبيرا من رجالهم . ولكن خسارتهم كانت أقل من خسارة اليوم الأول . ودار القتال على هذا بضعة أيام أخرى . وكثر عدد القتلى من الجانبين . واشتد ضغط الجناح الأيمن للمصريين على العدو ، حتى استطاع أن يسكت نقطة من نقط دفاعه المتعددة ، ويقضى على كل من يتصدى لإطلاق السهام من فتحاتها . وانتهز بعض الضباط البواسل هذه الفرصة ، فهاجموا تلك الجهة بجنودهم ، وأقاموا سلما وصعدوا عليه مع قوة باسلة ، تحميهم سهام إخوانهم يطلقونها لتغطيهم كالسحاب . وقد انتبه الرعاة إلى الناحية المهددة ، فتكاثروا عليها ، وأصلوا المهاجمين نارا حامية حتى أبادوهم . ومع ذلك سر الملك لهذا الهجوم الشجاع الجرىء ، وقال لمن حوله :

ـ لأول مرة من بدء الحصار ، يصعد نفر من جنودى إلى سور طيبة ، وإن قُتلوا . إنهم يضربون المثل الرائع لجيشى .

والحق ، كان لهذه الخطوة مغزى عظيم . فقد تكررت فى اليوم الثانى . ثم وقعت فى اليوم الثالث فى نقطتين من السور . ومضى ضغط المصريين على العدو يتزايد ، حتى بات الغزو أملا قريب المنال .

وفى تلك الأثناء ، جاء رسول ، من شاو حاكم سبين ، على رأس قوة من الجنود المدججين بالسلاح والذين تم تدريبهم ، ومعهم سفينة محملة بدروع الحصار ، وسلالمه ، وعدد من القباب الواقية . فاستقبلهم الملك بسرور ، وتضاعف أمله فى النصر ، وانضموا إلى المهاجمين الذين إزدادوا بهم قوة وأملا .

ومع الغد ، دار القتال مروعا هائلا ، وتوالت هجمات المصريين الصادقة ، ولاقوا الموت بقلوب لاتخشاه . وأنزلوا بعدوهم خسائر فادحة ، حتى بدا عليه الإعياء واليأس . وقال القائد محب ، وهو عائد من الميدان ، لمولاه :

ـ مولاى .. سنقتحم السور غدا .

وبات الملك ليلته شديد الإيمان كبير الأمل .

١٢

طلع فجر اليوم الموعود ، فاستيقظ المصريون فرحين مستبشرين . وتقدمت جموعهم إلى أماكنها وراء الدروع والقباب . ونظروا إلى خلف السور ، فتولتهم الدهشة ، وثار فيهم الغضب والانزعاج . لقد رأوا على السور منظرا لم يتوقعوه . رأوا أجسادا عارية ، أجساد نساء مصريات وأطفالهن الصغار . جاء بهم الرعاة ، وقيدوهم ، وهم أحياء ، إلى السور ليحتموا بهم من نبال المصريين وقذائفهم . ووقفوا خلفهم ضاحكين شامتين . وكان منظر النساء العاريات والأطفال الصغار ، وأيديهم وأرجلهم مقيّدة إلى السور ، منظرا يفتت الأكباد . فسرى الانزعاج حتى بلغ الملك فى خيمته . فنزل عليه كالصاعقة ، وصاح غاضبا :

ـ ياللوحشية ياللهمجية . الجبناء يحتمون بأجساد النساء والأطفال .

ساد الوجوم حاشية الملك وقواده ، ولم ينبس أحد منهم بكلمة . ووضح نور الصباح ، فرأوا على البعد سور طيبة تحميه أجساد النساء والأطفال . فاقشعرت أبدانهم ، واصفرّت وجوههم ، واتجهت أرواحهم تطوف بالأسرى المعذّبين فوق السور ، وأهليهم الواقفين فى الميدان أمامهم ، يعانون ويتألمون ، وهم عاجزون عن أن يعملوا لهم شيئا . فصاح حور بصوت متهدّج :

ـ ياللبائسات . إنهن ، إذا لم تمزق قلوبهن السهام ، فسيقتلهن توالى الليل والنهار ، إذا بقين على الوضع الذى هن فيه .

أخذت الملك الحيرة . ماذا يمكن أن يفعل ؟ إن كفاح أشهر طوال يكاد يضيع ، وآمال عشرة أعوام توشك أن تذهب سدا .

ماذا عسى أن يصنع ؟ هل جاء لخلاص شعبه ، أم للتنكيل به ؟

جعل يتمتم وهو حزين « آمون .. آمون .. ربى المعبود . هذا الكفاح لوجهك وللمؤمنين بك .. فألهمنى الصواب لأجد مخرجا » وتنبه من دعائه على صلصلة عجلة

قادمة من ناحية النيل . وإذا براكبها قائد الأسطول أحمس أبانا . الذى ترجّل ، وأدى للملك التحية ، ثم تساءل قائلا :

ـ مولاى .. لماذا لا يهجم جيشنا على الرعاة المنهارين . كان ينبغى أن يكون جنودنا على سور طيبة الآن .

فقال الملك بصوت حزين ثقيل النبرات ، وهو يشير إلى ناحية السور :

ـ انظر لترى بنفسك .

ولكن أحمس أبانا لم ينظر ، كما كانوا يتوقعون . وقال بهدوء :

ـ آذتنى عيونى ، برؤية هذا العمل الوحشى الدنىء . ولكن كيف نرضى أن نساق إلى الشرك الذى نصبه لنا أبوفيس ؟ هل يجوز أن نكف عن الكفاح فى سبيل طيبة ومصر ، اشفاقا من أن تؤذى نبالنا بعض نسائنا وأطفالنا ؟ .

فقال الملك أحمس بمرارة :

ـ هل ترى أن آمر بتمزيق أجساد هؤلاء النسوة البائسات وأطفالهن ؟ .

فقال القائد بحماس وثقة :

ـ نعم يامولاى . إنهن قربان الكفاح ، مثلهن مثل جنودنا البواسل الذين يتساقطون فى كل حين .. بل مثل مليكنا الشهيد سيكننرع ، وفقيدنا الباسل كاموس . مولاى ، قلبى يحدثنى بأن أمّى أبانا بين هؤلاء الأسيرات البائسات . فإذا صدق شعورى ، فإنى واثق أنها تدعو الرب الآن ، أن يجعل حبّك لطيبة فوق رحمتك بها وبأخواتها البائسات . ولست وحدى بين جنودنا . فلابد أن الكثيرين مجروحين مثلى . فليضع كل منا حول قلبه درعا من الإيمان والعزيمة .. ولنهجم .

ونظر الملك إلى قائد أسطوله طويلا ، ثم قلّب وجهه فى حاشيته وقواده . فقال الحاجب حور بهدوء ، وكان وجهه ممتقعا متهجما ؛

ـ صدق أحمس أبانا العظيم .

تنفس الرجال من الأعماق . وصاحوا جميعا فى نفس واحد :

ـ نعم .. نعم .. صدق قائد الأسطول . فلنهجم .

فالتفت الملك إلى القواد ، وقال لهم :

ـ أيها القواد ، اذهبوا إلى جنودكم ، وقولوا لهم إن مليكهم الذى فقد فى سبيل

صفحة فارغة

مصر جده وأباه ، والذى لن يتردد عن الجود بنفسه فى سبيلها ، يأمرهم بالهجوم على سور طيبة المدرّع بأكبادنا ، والاستيلاء عليه مهما كلفنا ذلك من فداء .

ذهب القواد سراعا . ونُفِخ فى الأبواق . فتقدم الجنود فى صفوف ، شاكى السلاح ، مكفهرى الوجوه . وصاح الضباط بأصوات مدوية : « حياة أمنمحيت أو ميتة سيكننرع » وبدأت فى الحال أبشع معركة خاضها الإنسان . وأطلق الرعاة السهام ، فرد المصريون عليهم بنبالهم ، التى انطلقت تشق صدور نسائهم وتمزّق قلوب أطفالهم ، وتسيل الدماء غزيرة . ولوّحت النسوة برءوسهن للجنود ، وصِحْن بأصوات رفيعة مبحوحة :

ـ اضربونا ولا تترددوا ، ينصركم الرب .. وانتقموا لنا .

فجن جنون المصريين ، وهجموا هجمة وحوش كاسرة . واندفعوا لا يبالون الموت ، وانقلبوا آلات جهنمية .. وحمى وطيس القتال ، واشتد الطغيان ، وسالت الدماء كالينابيع تنفجر فى الصدور والأعناق . وأحس كل مهاجم أن فى قلبه غمزا جنونيا لا يسكن ، حتى يدفن رمحه فى قلب واحد من الرعاة . وقبل أن ينتصف النهار ، تمكن الجناح الأيمن من أن يسكت عدة مواقع دفاعية . فبادر الرجال البواسل إلى إقامة سلالم الحصار ، وصعدوا عليها بقلوب لا تخشى الموت . فنقلوا القتال من الميدان إلى أعلى السور الحصين . وقفز بعضهم إلى سطح السور الداخلى ، واشتبكوا مع العدو بالرماح والسيوف ، وتوالت الهجمات بعنف وبسالة .

كان الملك يرقب القتال بدقة ويقظة ، ويرسل النجدات إلى المواقع التى يشتد عليها العدو . وقد شاهد جنوده يصعدون إلى السور فى مكان الوسط ومكانين فى الميسرة ، وقد أخذت الشمس تتوسط كبد السماء ، فقال :

ـ جنودى يبذلون جهود الجبابرة . ولكنى أخشى أن يلحقنا الظلام ، قبل أن نستولى على السور كله . فنبدأ من جديد فى الغد . فأصدر أوامره إلى فيالق جديدة بالهجوم. واشتد ضغط رجاله. وصنعوا لأنفسهم طرقا جديدة للوصول إلى أعلى السور.

أخذ اليأس يستولى على الرعاة ، بعد أن أنزل المصريون بهم خسائر فادحة ، وبعد أن رأوا سيلهم لا ينقطع وهم يصعدون الأسوار. فانهارت مواقع دفاعية بسرعة غير متوقعة .

واحتل جنود أحمس نقطا كاملة من السور . وبدا سقوط السور كله أمرا مؤكدا لا يحتاج إلا إلى وقت . وكان أحمس لا يكف عن إرسال الإمدادات القوية . وفيما هو منكب على ذلك ، دخل عليه ضابط من قوة الاستطلاع المتوغلة فى الحقول المحيطة بطيبة . وكان البشر يطفر من وجهه ، وقال للملك :

ـ أخبار جليلة يامولاى . أبوفيس وجيشه يغادرون أبواب طيبة الشمالية كالهاربين .

تعجب الملك ، وسأله :

ـ أواثق أنت مما تقول ؟ .

فقال الضابط بثقة وإيمان .

ـ رأيت بعينى ركب ملك الرعاة وحرسه ، يتبعهم جموع الجيش المدججة بالسلاح .

فقال أحمس أبانا :

ـ أدرك أبوفيس عبث الدفاع عن طيبة أمام هجمات جنودنا ، ففرّ هاربا .

فقال حور :

ـ وأدرك أيضا ـ من غير شك ـ أن الاحتماء بالنساء والأطفال كان شرا وبيلا عليه .

وما كاد حور يتم كلامه ، حتى وصل رسول جديد من الأسطول ، فحيا الملك وقال :

ـ مولاى ، شبت نيران الثورة فى طيبة . وشاهدنا من الأسطول قتالا عنيفا يقع بين الفلاحين والنوبيين من ناحية ، وأصحاب القصور وحرس الشاطئ من الناحية الأخرى .

فبدا القلق على القائد أحمس أبانا ، وسأل الضابط :

ـ وهل قام الأسطول بواجبه ؟ .

ـ نعم ياسيدى . أطلقت سفننا السهام بكثرة على الحراس ، حتى نشغلهم عن قتال الثائرين .

ظهر الارتياح على وجه القائد . واستأذن الملك فى العودة إلى أسطوله ليهجم على

الشاطئ . فأذن له الملك . وقال الملك لحور مغتبطا :

ـ لن يفلت أصحاب القصور والضياع هذه المرة بأموالهم .

فقال حور بصوت متهدج من الفرح :

ـ نعم يامولاى . وعما قريب تفتح لك طيبة المجيدة أبوابها .

ـ ولكن أبوفيس فرّ بجيشه .

ـ لن نكف عن الكفاح حتى تسقط هواريس، ويجلو عن مصرآخر رجل من الرعاة.

عاد الملك إلى مراقبة القتال . فرأى جنوده تقاتل على سلالم الحصار وفى أعلى السور ، وتضغط على الرعاة المتقهقرين أمامهم . وصعدت فيالق من حملة الرماح والسيوف بكثرة ، واعتلت السور من كل جانب . وأحاطت بالرعاة ، وأعملت فيهم القتل والذبح . وما لبث الملك أن رأى جنوده تمزّق علم الهكسوس ، وترفع علم طيبة الخفاق . ثم شاهد أبواب طيبة العظيمة ، تفتح على مصراعيها ، وجنوده تندفع إلى داخلها ، هاتفة باسمه . فحنى رأسه يجفف دمعة منتزعة من ضلوعه . وكان حور إلى يمينه يصلى ، ويجفف عينيه .

١٣

أخذت الشمس تميل نحو المغيب . وأقبل الملك والقائدان محب وريب ، ثم تبعهما أحمس أبانا . وقال لهم الملك :

ـ قبل أن نهنئ بعضنا بعضا ، ينبغى أن نؤدى الواجب نحو جثث الأبطال والجنود والنساء والأطفال الذين استشهدوا فى سبيل طيبة .

وكانت الجثث ملقاة فى جنبات الميدان ، وعلى سطح السور ، وخلف الأبواب ، وقد عفّرتها الأتربة ، وخضّبتها الدماء ، وشملها سكون الموت الرهيب . فرفعها الجنود باحترام ، وساروا بها إلى جانب من المعسكر ، وأرقدوها جنبا إلى جنب . وأتوا بالنساء والأطفال الذين مزّقتهم سهام جنودهم ، ووضعوهم فى مكان خاص .

وتوجّه الملك إلى مرقد الشهداء ، يتبعه الحاجب حور والقواد الثلاثة والحاشية . ولما دنا من الجثث المتراصة ، انحنى فى إجلال صامت حزين . وفعل رجاله مثله . ثم

سار فى خطى بطيئة ، كأنما يستعرض هذه الجثث فى حفل رسمى مشهود . ثم اتجه إلى حيث يرقد النسوة والأطفال ، وقد غطيت أجسادهم العارية بأغطية من الكتان . اكتسى وجه الملك بسحابة حزن ، وأظلمت عيناه . وتنبه من حزنه ، على صوت القائد أحمس أبانا ، وهو يصيح بالرغم عنه ، قائلا :

ـ أمى ..

فالتفت الملك وراءه ، فرأى قائده يجثو متألما متفجعا أمام إحدى الجثث . إنها أمه السيدة أبانا . فوقف الملك إلى جانب قائده الجاثى ، خاشعا حزين الفؤاد . وكان يكنّ للسيدة أبانا احتراما عظيما ، ويعرف لها وطنيتها وشجاعتها وفضلها فى تربية أحمس ، خير قواده بلا نزاع . ورفع الملك رأسه إلى السماء ، وقال بصوت متهدّج .

ـ ربنا المعبود آمون .. هذه ودائعك تردّ إليك . وكانوا فى عالمنا يعيشون لغيرهم . وكذلك ماتوا .

والتفت الملك إلى الحاجب حور ، وقال :

ـ أريد إيداع هذه الجثث جميعا مقابر طيبة . فأحق الناس بأرض طيبة ، من استشهدوا فى سبيلها .

وفى تلك الأثناء ، عاد الرسول الذى كان الملك قد أرسله إلى أسرته ، يدعوها للقدوم إلى مصر من منفاها فى النوبة . وكان يحمل رسالة من توتيشيرى . قرأها أحمس ، ثم طواها ، وهو يقول بتبرّم :

ـ الأم توتيشيرى تقول إنها لن تدخل مصر ، حتى نطهّر أرضها من عدوها ، ونجلى عنها آخر رجل من الرعاة .

فقال حور :

ـ أمنا المقدسة ، تريد ألا نكف عن القتال ، حتى نحرر مصر .

فهز الملك رأسه بالموافقة . فتساءل حور :

ـ ألا يدخل مولاى طيبة هذا المساء ؟ .

فقال أحمس :

ـ كلا ياحور .. سيدخلها جيشى وحده .. أما أنا فسأدخلها مع أسرتى بعد طرد الرعاة . ندخلها جميعا ، كما فارقناها جميعا .. منذ عشرة أعوام .

١٤

رجع الملك إلى الخيمة الفرعونية . فجاءه أحد ضباط الجيش ، وقال له :

ـ أرسلنى قادة ثورة طيبة ، يطلبون الإذن ليمثلوا بين يديك ، ليقدموا لذاتك العالية ، هدايا مما غنموا فى ثورتهم .

فابتسم أحمس ، وسأل الضابط :

ـ أقادم أنت من طيبة ؟ .

ـ نعم يامولاى .

ـ هل فتحت أبواب معبد آمون ؟ .

ـ فتحها الثوار يامولاى .

ـ ولماذا لم يأت الكاهن الأكبر لتحيتنا ؟ .

ـ يقولون ، يامولاى ، إنه أقسم ألا يغادر خلوته ، وفى مصر رجل من الرعاة .. إلاّ أن يكون عبدا أو أسيرا .

فابتسم الملك ، وقال :

ـ حسنا أحْضِر قومى .. أهل طيبة .

فغادر الضابط الخيمة ، ومضى إلى المدينة ، وعاد يتبعه قوم كثيرون ، يسيرون جماعات جماعات . وتسوق كل جماعة هديتها .

واستأذن للجماعة الأولى . فدخل نفر من المصريين يدفعون بين أيديهم رجالا من الرعاة ، عارية رءوسهم ، متلبدة لحاهم ، ومتعفرة جباههم . وسجدوا لمليكهم . وحيا كبيرهم الملك بكلمة ، ورد عليه الملك شاكرا مبتسما ، فقال الرجل للملك :

ـ هؤلاء ، يامولاى ، نفر من الرعاة الذين ملكوا الضياع بغير حق ، كأنما ورثوها عن آبائهم ، واستذلوا المصريين وساموهم القهر ، وأسندوا إليهم أشق الأعمال بأزهد الأجور . هؤلاء طغاة الأمس ، وأسرى اليوم .. سقناهم إلى ذاتك العلية ، عبيدا من أذل عبيدك .

فابتسم الملك ، وشكرهم ، وهنأهم على استرداد سيادتهم وحريتهم . فسجدوا لمليكهم مرة أخرى . وغادروا الخيمة . وساق الجنود الرعاة إلى معتقل الأسرى .

ثم دخلت الجماعة الثانية ، يسير بين أيديها رجل ضخم الهيكل ، ناصع البياض ، ممزق الثياب ، تركت السياط آثارا واضحة على ظهره وذراعيه ، فسقط إعياء عند قدمى الملك . وبعد أن سجدوا لمليكهم ، قال رجل منهم :

ـ مولانا فرعون مصر ابن الرب آمون . هذا الشرير الذليل الآن ، كان كبير شرطة طيبة . وكان يلهب ظهورنا بسوطه لأتفه الأسباب . فمكننا الرب منه ، فألهبنا ظهره بسياطنا ، حتى مزقت جلده ، وأتينا به إلى معسكر الملك لينضمّ إلى عبيده .

فأمر الملك ، وأخذه الجند ، وهنأ قومه ، وشكرهم .

وأذن الملك للجماعة الثالثة . فأقبلت عليه تسوق رجلا ، ما أن وقع بصر الملك عليه حتى عرفه . فهو سنموت قاضى طيبة وشقيق خنزر . فألقى عليه الملك نظرة هادئة ، ونظر سنموت إليه نظرة ذاهلة من عينين تكادان لا تصدقان . وحيا الرجال الملك ، وقال كبيرهم :

ـ إليك يافرعون ، نسوق من كان بالأمس قاضى طيبة . كان يقسم للعدالة ويحكم بالظلم . فجئنا به ليذوق ما كان يسق به الأبرياء .

فقال أحمس ، موجها خطابه للقاضى :

ـ كنت تحكم على المصريين ياسنموت . واليوم يحكم عليك المصريون .

وأخذه الجنود ، وشكر الملك رجاله المخلصين .

وجاءت الجماعة الأخيرة . وكانت شديدة الحماسة ، وتغلى بالغضب ، وتحيط بشخص لفته فى قطعة من الكتان ، تغطّيه من قمة رأسه إلى أسفل قدميه . وحيوا الملك هاتفين ، وقال قائلهم :

ـ يافرعون مصر ، وحامى المصريين ، والمنتقم لهم . نحن بعض من الذين أخذ الرعاة نساءهم وأطفالهم ، واحتموا بهم فى موقعة طيبة . فأراد الرب أن ينتقم لنا من أبوفيس . وهجمنا على حريمه فى أثناء انسحابه . وخطفنا من هى أعزّ عليه من نفسه ، وجئنا بها إليك لتنتقم منها لنسائنا .

وأزاح الرجل ستار الكتان ، فبدت امرأة عارية إلا من غلالة على وسطها ، بيضاء صافية كالنور ، يهفو شعرها حول هامتيها . كأسلاك الذهب ، ويلوح فى وجهها الفاتن الضيق الغضب والكبرياء .

بهت أحمس ، ونظر إليها ، ونظرت إليه . وبدا الانزعاج على وجهه ، وبدت على وجهها الدهشة . وتمتم بصوت غير مسموع وهو فى ذهول : « الأميرة أمنريدس .. ! » .

وخلع حور عباءته ، ودنا منها ، وألقاها عليها ، وصاح أحمس :

ـ لماذا تمثّلون بهذه المرأة ؟ .

فقال زعيم القوم :

ـ إنها ابنة كبير السفاكين أبوفيس .

وأدرك أحمس حرج موقفه بين قومه الغاضبين المتعطشين للانتقام ، فقال :

ـ لا تمكّنوا الغضب من أنفسكم ، ليفسد عليكم آدابكم المقدسة . وأنتم قوم يحترمون النساء ، ولا يقتلون الأسرى .

ـ فقال رجل موتور :

ـ ياحامى المصريين ، سيشفى صدورنا ، أن نرسل رأس هذه المرأة إلى أبوفيس .

فقال أحمس :

ـ هل تحثّون مليككم على أن يكون كأبوفيس فى سفك الدماء وقتل النساء ؟ اتركوا الأمر لى ، وانصرفوا بسلام .

فسجد القوم له وانصرفوا .

ونادى أحد ضباط حرسه ، وأمره بصوت خافت ، أن يمضى بالأميرة إلى سفينته الفرعونية ، وأن يحيطها بالعناية .

وكابد الملك ثورة فى القلب والنفس ، فلم يحتمل القعود .

وأصدر أمره إلى قواده بدخول طيبة على رأس الجيش .. دخول الظفر والنصر . ولما تحوّل إلى حور ، وجده يرمقه بعينين قلقتين .. حائرتين .. مشفقتين .

صفحة فارغة

١٥

خلا الميدان ، فاتجه الملك نحو النيل يتبعه حرسه . وكان يحث سائق عجلته على السرعة ، وكان غارقا فى الأحلام والأفكار . أية صدمة تعرض لها قلبه اليوم ، أية مفاجأة كابدها وعاناها ؟ لم يكن يدور بخلده أنه سيلتقى بأمنريدس مرة أخرى . ولكنه رآها اليوم على غير انتظار أو حسبان . ألقت بها المقادير ، وغدت بغتة فى ملكه الخاص . لشد ما اضطرب صدره ، وخفق قلبه ، وتيقظت فى نفسه عواطف حارة ، أحيت من جديد ذكرياته القديمة الحلوة .

ولكن هى .. هل عرفته ياترى ؟ وإذا لم تكن عرفته .. فهل ما تزال تذكر التاجر أسفينيس .. الذى أنقذت حياته من الموت المحقق ؟ .. ومن قالت له والقلب خافق والدموع تذرف « إلى اللقاء » ؟ ومن اشتاقت إليه فى منفاه ، فبعثت إليه برسالة كمن الحب فى سطورها ؟ أما يزال قلبها يخفق خفقته الأولى فى مقصورة السفينة الفرعونية ؟ رباه .. ما له يحس أنه مقبل على سعادة لا حدّ لها ؟ هل قلبه يُصدِقه أم يخدعه ؟ .

أحس قلقا لم يساوره فى أحرج المواقف . وكان ركبه قد بلغ الشاطئ ، فهبط إلى السفينة الفرعونية ، وسأل الضابط الذى عهد إليه بها :

ـ كيف حال الأميرة ؟ .

ـ وُضِعت يامولاى فى مخدع خاص ، وجىء لها بثياب جديدة ، وَقدم لها الطعام ، ولكنها رفضت أن تمسّه ، وعاملت الجنود بكبرياء ودعتهم بالعبيد . ولكنها عوملت أحسن معاملة كأمرك يامولاى .

بدا على الملك عدم الارتياح . وسار بخطوات هادئة إلى المخدع . ففتح الباب له أحد الحراس ، وأغلقه بعد دخول الملك . كانت الأميرة تجلس إلى يمين المدخل ، على أريكة وثيرة ، فى ثوب بسيط من الكتان ، وقد مشّطت شعرها الذى بعثره الثائرون وأرسلته ضفيرة كبيرة . فنظر إليها مبتسما . فرآها تنظر إليه فى دهشة وغرابة ، وهى لا تصدّق عينيها . فحياها قائلا :

ـ طاب مساؤك أيتها الأميرة .

فلم تجبه . ولكنها ازدادت بسماع صوته حيرة وشكا . وكان يطيل النظر إليها فى شغف وافتنان . فسألها :

ـ هل يعوزك شىء ؟ .

فتفرست فى وجهه ، وصعّدت بصرها إلى خوذته ، وخفضته إلى درعه ، وسألته :

ـ من أنت ؟ .

ـ أدْعى .. أحمس فرعون مصر .

فظهر عدم التصديق فى عينيها . وأراد أن يزيدها حيرة ، فخلع خوذته ، فرآها تنظر إلى شعره بغرابة ، فقال لها :

ـ مالك تنظرين إلىّ هكذا ، كأنك تعرفين شبيها لى ؟ .

فلم تدر ما تقول . واشتاق إلى سماع صوتها وحنانها ، فقال لها :

ـ هل إذا قلت لك إنى أسفينيس .. تردين علىّ ؟ .

وما كادت تسمع اسم أسفينيس ، حتى قامت واقفة ، وصاحت به :

ـ إذن أنت أسفينيس ! .

فدنا خطوة منها ، وحدّق فيها بنظرة حنان ، وأمسك بمعصمها ، وهو يقول :

ـ نعم أنا أسفينيس ياأميرة أمنريدس .

فجذبت معصمها بشدة ، وقالت :

ـ أنا لا أفهم شيئا .

فابتسم أحمس ، وقال برقة :

ـ ماذا تهم الأسماء ؟ كنت بالأمس أدعى أسفينيس ، واليوم أدعى أحمس .. ولكنى شخص واحد وقلب واحد .

ـ ياللغرابة .. كيف تقول أنت شخص واحد ؟ كنت تاجرا تبيع الحلى والأقزام .. وأنت اليوم تقاتل ، وترتدى ثياب الملوك .

ـ ولِمَ لا ؟ كنت بالأمس أجوب طيبة متخفيا . واليوم أقود قومى لتحرير بلدى ، وأستردّ عرشى المسلوب .

نظرت إليه نظرة طويلة ، تحيّر فى معناها . وحاول أن يدنو منها مرة أخرى ،

ولكنها صدّته بإشارة من يدها ، وتجمّد وجهها ، وبدت القساوة والكبرياء فى عينيها . فأحس خيبة أمل . وسمعها تقول بشدة :

ـ ابتعد عنى .

فقال لها برجاء .

ـ ألا تذكرين .. ؟ .

ولكنها قاطعته قائلة فى غضب اشتهر به قومها :

ـ سأتذكر دائما أنك جاسوس وضيع .

فأحس بصدمة مروعة ، وقال بغضب :

ـ أيتها الأميرة .. ألا تدركين أنك تخاطبين ملكا ؟ .

ـ أى ملك .. ياهذا ؟ .

فاستولى عليه الغضب ، وقال بشدّة :

ـ فرعون مصر .

فقالت بتهكم :

ـ وأبى ، هل يكون أحد ولاتك ؟ .

فاشتد الغضب به ، وغلبت كبرياؤه كل عواطفه ، وقال :

ـ أبوك ليس أهلا لأن يكون واليا من ولاتى . ولكنه مغتصب لعرش بلادى . وقد هزمته شر هزيمة ، وجعلته يفرّ من أبواب طيبة الشمالية ، تاركا ابنته أسيرة بين أيدى الذين ظلمهم . وسوف أتبعه بجيوشى حتى يلجأ إلى الصحارى التى قذفته إلى وادينا .. أما أنا فالملك الشرعى لهذا الوادى ، لأنى من سلالة فراعنة طيبة المجيدة ، ولأنى قائد مظفّر أسترد بلادى قوة واقتدارا .

وامتد الجدل حاداً بينهما . ووجدها ذات كبرياء وقسوة لا تلين ، تتمثل فيها صفات قومها الفظة المتعالية . فاشتد به الغضب ، وأحس برغبة حارة فى إخضاعها وإذلالها ، بعد أن أذلت عواطفه ، بكبريائها وصلفها ، فقال بصوت هادئ ، متعال :

ـ لا أرى سببا يدعونى إلى الاستمرار فى الجدال معك . ولا يجوز أن أنسى أنى ملك ، وأنك أسيرة .

ـ أسيرة كما تشاء ، ولكنى لن أُذلّ أبدا .

فهز كتفيه العريضين استهانة ، وأخذ خوذته من مكانها ، ووضعها على رأسه . وقبل أن يخطو خطوة أخرى سمعها تقول :

ـ لقد قلت بحق إنى أسيرة . فليست سفينتك إذن المكان الذى يصلح للأسرى . فألحقنى بالأسرى من قومى .

فنظر إليها مغيظا ، وقال يخيفها :

ـ ليس الأمر كما تتصورين . فالعادة أن الأسرى الرجال يسخّرون عبيدا ، أما النساء فيلحقن بحريم الملك المنتصر.

ـ ولكنى أميرة .

ـ كنت أميرة .. والآن ، لست سوى أسيرة .

ـ كلما تذكرت أنى أنقذت حياتك يوما .. يجن جنونى .

فقال بهدوء :

ـ وبفضل ذلك ، أنقذت حياتك من أيدى الثائرين ، الذين أرادوا أن يرسلوا رأسك إلى أبوفيس .

وأدار لها ظهره ، وغادر الغرفة غاضبا حانقا ، وأمر بالإبحار إلى شمال طيبة . فانحدرت السفينة مع تيار النيل المتدفق منذ الأزل ، تشق الظلماء إلى شمال طيبة . وكان النور يشع من سفن الأسطور الراسية على شاطئ المدينة . أما القصور الشاهقة ، فكانت غارقة فى الظلمة ، بعد أن هجرها أصحابها الفارّون . ولاحت على البعد أضواء المشاعل يحملها الساهرون الفرحون ، تتصاعد أصواتهم بالهتاف والأناشيد . فجرت ابتسامة على فمه العريض ، وأدرك أن طيبة تستقبل جيش الخلاص ، كما تعودت أن تستقبل جيوشها المظفرة ، وأعيادها الخالدة .

ومضت السفينة تدنو من القصر الفرعونى . ورآه الملك مضاء ، يشع النور من نوافذه وحديقته . وعلم أن حور يشرف على إعداده وتطهيره ، وأنه عاد إلى أداء وظيفته الأولى فى قصر سيكننرع . وشاهد أحمس ميناء حديقة القصر ، فعاودته الذكرى الأليمة ، ليلة أن حملت السفينة الفرعونية أسرته إلى أقاصى الجنوب .

وعاود الملك السير جيئة وذهابا على مقدمة السفينة ، واتجه بصره مرات إلى مخدع الأميرة المغلق . ثم تساءل متبرما ساخطا . لماذا جاءونى بها ؟ لماذا جاءونى بها .. ؟ .

١٦

فى صباح اليوم التالى ، بكر حور والقواد والمستشارون إلى زيارة الملك فى سفينته . وقال حور بصوته الهادئ :

ـ أسعد الرب صباحك أيها الملك المظفر . تركنا وراء أبواب طيبة ، أهلها تخفق قلوبهم بالفرح ، ويهزهم الشوق إلى اجتلاء وجه محررهم ومخلّصهم .

فقال أحمس :

ـ لتفرح طيبة . أما اللقاء حين يقضى الرب بالنصر .

وأضاف حور :

ـ لا تسل يامولاى عن الحماسة التى فاضت بقلوب الشباب وتهافتهم لينضموا إلى جيش أحمس المعبود .

فابتسم الملك ، وسألهم هل زاروا معبد آمون ؟ فأجابوا : نعم . وكذلك الجنود هرعوا إليه وزاروه . وفاض المذبح بالقرابين ، وترددت الصلوات فى جنبات المعبد . أما نوفر آمون فلم يبرح عزلته .

فابتسم الملك . ولاحت منه التفاته ، فرأى القائد أحمس أبانا صامتا مكتئبا . فأشار إليه أن يقترب . ووضع الملك يده على منكبه ، وواساه ، وذكّره بشعار أسرته « الشجاعة والعطاء » ، فحنى القائد رأسه شاكراً .

واستشار الملك رجاله فيمن يختاره حاكما لطيبة ، ويعهد إليه بمشقة تنظيمها ، فقال القائد محب :

ـ خير من يصلح لهذا المنصب الخطير ، الرجل المخلص الحكيم حور ..

فقال حور :

ـ إن واجبى هو السهر على خدمة مولاى لا فى التخلّف عنه .

فقال أحمس :

ـ صدقت .. وأنا لا أستغنى عنك .

فقال حور :

ـ يوجد رجل فاضل عظيم الدراية والخبرة ، معروف بالحكمة وأصالة الرأى ، هو

توتى آمون وكيل معبد آمون . فإذا شاء مولاى فليعهد إليه بشئون طيبة .

فقال أحمس :

ــ قد ولیناه طيبة .

ثم دعا الملك رجاله إلى تناول الفطور على مائدته .

١٧

مضت ساعات النهار والجيش يضمّد جراحه ، ويأخذ قسطا من الراحة واللهو والغناء . سارع الجنود الطيبيون إلى منازل أهلهم ، فتعانقت القلوب وامتزجت النفوس ، وصارت طيبة كأنها قلب الدنيا الخافق . أما أحمس فلم يبرح سفينته . ودعا الضابط المكلّف بحراسة الأميرة وسأله عنها . فقال له الرجل : إنها باتت ليلتها دون أن تذوق طعاما . وكان أحمس يفكر فى وضعها فى سفينة أخرى ، ولكنه لم ينته إلى رأى قاطع . ولم يشك فى أن حور غير راض عن وجودها فى سفينته . وأيقن أن الحاجب يشق عليه أن تنال ابنة أبوفيس هذه الحظوة لديه . وكان يعرف حور حق المعرفة . ويعرف أنه لا يشغل قلبه سوى كفاح طيبة . أما هو ، فكانت عواطفه متعطشة فائرة . وكان يكابد من صرف نفسه عن أن تحوم حول المخدع وصاحبته ، وعن التفكير فيها ، والتعلق الشديد بها ، رغم ما به من سخط وغضب . وكان يتلمّس الأعذار لصلفها وكبريائها ، ويذكر لها إنقاذها لحياته ، وقلقها لغيابه ، فكتبت إليه الرسالة التى تضمر الحب المكتوم .

انتظر الأصيل وهزّ كتفيه استهانة ، وذهب إلى المخدع . فرآها تجلس فى جمود وهدوء ، تلوح فى عينيها الزرقاوين الكآبة والملل . فوقف أمامها جامدا ، فاستوت فى جلستها ، ورفعت إليه عينين باردتين ، فقال لها برقة :

ــ كيف كانت ليلتك ؟ .

فلم تجب ، وخفضت رأسها تنظر إلى الأرض . فأعاد سؤاله : وبدا عليها أنها لا تريد أن تخرج عن الصمت . ولكنها رفعت رأسها بحدة وقالت :

ــ كانت أسوأ ليالىّ .

ـ لماذا ؟ هل يعوزك شيء ؟ .

ـ يعوزني كل شيء .

ـ كيف ؟ لقد أمرت الضابط المكلف بحراستك ..

فقاطعته بتبرم قائلة :

ـ لا تتعب نفسك .. يعوزني كل شيء أحبه .. يعوزني أبي وقومي وحريتي .. وأكره كل ما تقدمه .. هذه الثياب ، وهذا الطعام ، وهذا المخدع وهؤلاء الحراس ..

واستمرت حدة الحديث بينهما ، وتمادت في صلفها وكبريائها ، وهددت بالامتناع عن الطعام لتموت ، ولا تقع في ذل الأسر أو عذابه .

وضاق الملك بحديثها ، وكان يعاني مرارة الخيبة ، فلم يطق البقاء . وقال وهو يهم بمغادرة المخدع :

ـ لا حاجة بك إلى الامتناع عن الطعام .

وغادر المخدع مغضبا ساخطا . وقد بيّت نيته على أن ينقلها إلى سفينة أخرى . ولكن ما كاد غضبه يهدأ ، بعد أن خلا إلى نفسه في المقصورة ، حتى عدل عن نيته ، ولم يصدر أمره بنقلها .

١٨

مثل الحاجب حور بين يدى الملك في مقصورته ، وقال :

ـ مولاى .. رسل من أبوفيس يستأذنون في المثول بين يديك .

فتعجب أحمس ، وسأله :

ـ ماذا يريدون ؟ .

ـ قالوا إنهم يحملون رسالة لذاتك العليا ..

ـ ادعهم .. سريعا .

دخل الرسل . وكانوا ثلاثة يتقدمهم كبيرهم ، ويتبعه اثنان يحملان صندوقا من العاج . وكانوا كما يبدو من ثيابهم الفضفاضة .. من الحجاب : بيض الوجوه .. طوال اللحى . وقد رفعوا أيديهم بالتحية دون انحناء . ووقفوا في غطرسة ظاهرة . فرد

صفحة فارغة

أحمس تحيتهم فى كبرياء ، وسألهم :

ـ ماذا تريدون ؟ .

فقال كبيرهم بلهجة أعجمية متغطرسة :

ـ أيها القائد ..

فلم يجعله حور يتم عبارته .. وقال له بهدوئه :

ـ أنت تحدّث فرعون مصر يارسول أبوفيس .

فردّ على حور :

ـ الحرب ماتزال مستعرة . ولم يفصل فيها بعد . ومادام لنا رجال وفى أيدينا سلاح ، فأبوفيس فرعون مصر لا شريك له .

فأشار أحمس إلى حاجبه بالسكوت . وقال للرسول :

ـ تكلم فيما جئت من أجله .

فقال :

ـ أيها القائد : خطف الفلاحون يوم الانسحاب من طيبة صاحبة السمو الفرعونى الأميرة أمنريدس ، كريمة مولانا الملك أبوفيس فرعون مصر وابن الرب ست . ومولانا يريد أن يعلم هل ابنته على قيد الحياة ، أو قتلها الفلاحون ؟ .

ـ هل يذكر مولاك ما فعله بنسائنا وأطفالنا فى حصار طيبة ؟ وجنودكم الجبناء محتمون بهم ؟ .

فقال الرجل بحدة :

ـ مولاى لا يتنصّل من عاقبة عمله . والحرب نزال للموت ولا مكان فيها للرحمة .

فهز أحمس رأسه بنفور ، وقال :

ـ بل الحرب نزال بين الرجال . وأعجب ، إذا كان هذا هو رأى مولاكم فى الحرب ، فكيف يسأل عن ابنته ؟ .

فقال الرسول بإباء :

ـ مولاى يستفهم لغاية فى نفسه .. فلا هو يسترحم ولا هو يخاف .

وفكّر أحمس مليا ، وأدرك الباعث الذى حدا بعدوه إلى السؤال عن ابنته .

ولذلك قال بوضوح ، وبلهجة دلت على الاحتقار :

ـ عد إلى مولاك ، وقل له إن الفلاحين قوم شرفاء ، لا يغتالون النساء ، والجنود المصريين يترفّعون عن قتل أسراهم ، وإن ابنته أسيرة تتمتع بنبل آسريها .

فبدا على الرجل الارتياح ، وقال :

ـ كلماتك هذه ، أنقذت أرواح الآلاف من قومك ، نساء ورجالا ، ممن أسرهم الملك ، وجعل حياتهم رهينة بحياة سمو الأميرة .

فقال له أحمس :

ـ وحياة الأميرة رهينة بحياتهم .

صمت الرجل مليا ، ثم قال :

ـ وقد أُمِرْت ألا أعود حتى أراها بنفسى .

وبدا الرفض على وجه حور . ولكن أحمس بادر الرسول قائلا :

ـ ستراها بنفسك .

فأشار الرجل إلى الصندوق العاجى الذى يحمله تابعاه ، وقال :

ـ وهذا الصندوق يحوى بعض ثيابها . فهل تأذن لنا فى تركه فى حجرتها .

فسكت الملك هنيهة ، ثم قال :

ـ لك هذا .

ولكن حور مال إلى مولاه وهمس قائلا :

ـ ينبغى أن نفحص الثياب أولا .

فوافق الملك . فأمر حور بوضع الصندوق بين يدى الملك ، ثم فتحه ، وأخرج ما به ثوبا ثوبا . وعثر على صندوق صغير ، فأمسك به ، وفتحه . فإذا به عقد ذو قلب زمردى . وارتعد قلب الملك لمرآه . وتذكر كيف انتقته الأميرة ، يوم كان يدعى أسفينيس ، ويبيع اللآلئ .. فتورّد وجهه . أما حور فقال :

ـ هل الأسر مكان صالح للزينة ؟ .

فقال الرسول :

ـ هذا العقد حلية الأميرة المفضّلة لديها .. فإن شاء القائد أبقيناه ، وإلا أخذناه معنا .

فقال أحمس :

ـ لا بأس بإبقائه .

ثم التفت الملك إلى الضباط ، وأمرهم باصطحاب الرسل إلى مخدع الأميرة .

١٩

فى ذات المساء ، لحقت بالجيش قوات مدربة من الجنوب . ورست فى ميناء طيبة سفن صغيرة محملة بالأسلحة وقباب الحصار ، قادمة من أمبوس . وبشّر رُبَّانها الملك بأنه ستصله ، عما قريب ، قوة من العجلات والفرسان المدربين . كذلك انضم إلى الجيش رجال من طيبة . واستعاض جيش أحمس ما فقده من الرجال . ولم ير الملك داعيا إلى البقاء فى طيبة أكثر مما بقى . فأمر قواده بالاستعداد للزحف شمالا فجر الغد .

وعند مطلع الفجر ، تحرّك الجيش العرمرم صفوفا كأمواج البحر ، تتقدمه الطلائع ، ويسير فى مقدمته الملك وحرسه ، ثم فرقة العجلات تتبعها الفرق الأخرى . وأقلع الأسطول بقيادة أحمس أبانا ، يشق مياه النيل بوحداته القوية . وتواثب الجميع للقتال والنصر . واستقبل الجيش فى القرى بحمسة دافقة ، وخرج الفلاحون يهتفون ويلوحون بالأعلام وسعف النخل .

وعند الضحى ، وصل الجيش إلى شنهور . ودخلها بغير مقاومة . ثم أمسى فى قسىّ ، ففتحت له أبوابها ، وباتوا جميعا فيها . واستأنفوا المسير مع الفجر . وواصلوا السير حتى شارفوا ميدان كبتوس الذى ينتهى بالمدينة . وهنا شمل الجيش صمت حزين ، وطافت الذكريات بالرءوس . وتذكر أحمس الهزيمة التى حلت بجيش طيبة فى هذا الوادى ، لعشرة أعوام خلت أو تزيد . وذكر مصرع جده الباسل سيكننرع الذى ارتوت هذه الأرض بدمه . ولاحت منه التفاتة نحو حور ، فرأى عينيه مغرورقتين بالدموع . ولكنه سارع إلى تجفيف دموعه ، وقال للملك :

ـ فلنصلِّ جميعا ، يامولاى ، على روح مليكنا الشهيد سيكننرع وجنوده البواسل.

صلوا جميعا صلاة حارة .

٢٠

دخل الجيش مدينة كبتوس ، وخفق علم مصر على أسوارها . وهتف الجنود طويلا لذكرى سيكننرع . ثم زحف الجيش إلى مدينة بعد أخرى دون أن يعثر برجل من العدو وجيوشه الجرارة . ووصل إلى أبيدوس ، ففتحت أبوابها لجيش الخلاص . ودخلها دخول الجيش المظفر واستراح بها يومه .

كان أحمس يتعطش للحرب لعله يلقى عدوه فى موقعة فاصلة . كما كان يتوق إلى أن ينشغل فى القتال لينسى نوازع نفسه وأحزان فؤاده . ولكن أبوفيس أبى عليه ذلك . فوجد أفكاره تحوم حول الأسيرة العنيدة . وتذكر أحلامه ، حين ظن أن الأقدار السعيدة قد دفعتها إلى أسره ، وحين طمع فى أن يجعل سفينة الأسر ، جنة من جنان الحب . ثم تذكر إباءها وكبرياءها وجدالها . ولكن .. كانت رغبته إلى الحب قوية لا تقاوم . فجرفت عوائق التردد والكبرياء عنده . فذهب إلى السفينة ، وقصد إلى المدخل المسحور ودخل . وكانت جالسة جلستها المعهودة على الأريكة ، ملتفة فى ثوب رقيق . وكأنها عرفت وقع خطاه ، فلم ترفع إليه رأسها ، وظلت تنظر إلى ما بين قدميها . وجرى بصره على مفرق شعرها وجبينها وجفنيها المسبلين ، فأحس برغبة فى أن يرتمى عليها ، ويضمها بين ذراعيه ، ولكنها رفعت رأسها بغتة ، ورمته بنظرة باردة . فلبث فى مكانه جامدا ، ثم سألها :

ـ هل زارك الرسل ؟ .

فقالت بلهجة لا تنم عن عاطفة :

ـ نعم .

فجال ببصره فى الحجرة ، حتى استقر على الصندوق العاجى ، وقال :

ـ أذنت لهم أن يوصلوا إليك هذا الصندوق .

فقالت بجفاء :

ـ شكرا لك .

ـ وكان بالصندوق العقد ذو القلب الزمردى .

فاضطربت شفتاها ، وأرادت أن تتكلم ، ولكنها عدلت فجأة .

فقال أحمس برقة :
ـ قال الرسل : هذا العقد عزيز لديك .
فهزت رأسها بعنف ، وكأنها تنفى عن نفسها تهمة ، وتهربت فى إجابتها . لم ييأس ، وحاول أن يذكّرها بقصة العقد . فقالت بغضب :
ـ لا أذكر اليوم نزوة كانت بالأمس . ويجمل بك أن تحدّثنى حديث العدو لأسيره .
تجرّع الخيبة مرة أخرى ، وقال :
ـ ألم تعلمى أننا نضم نساء أعدائنا الأسرى إلى حريم قصورنا ؟ .
فقالت بحدة :
ـ لن تستطيع .
ـ هل تعودين إلى التهديد بالصوم عن الطعام ؟ .
ـ لا حاجة لى به الآن ؟ .
فسألها متهكما :
ـ وكيف تقاومين ؟ .
فأرته سلاحا صغيرا جدا فى كفها ، وقالت :
ـ انظر . هذا خنجر مسموم ، إذا خدشت به جلدى سرى سمه فى دمى ، وقضى علىّ فى لحظات . دسّه إلىّ الرسول فى غفلة من رقبائك . فعلمت أن أبى يضع بين يدىّ ما أقضى به على نفسى ، إذا مسّنى ذل أو تحرش بى أحد .
فغضب أحمس ، وعبس وجهه ، وقال :
ـ أهذا هو سر من أسرار الصندوق ؟ سحقا لمن يطمئن إلى كلمة خنزير من الرعاة ذوى اللحى القذرة . الخيانة تسرى فى عروقكم مسرى الدم . ولكن أراك تخطئين فهم رسالة أبيك . فقد دسّ إليك هذا الخنجر ، لتقضى به علىّ .
فهزت رأسها كالساخرة ، وقالت :
ـ أنت لا تفهم أبوفيس . إنه يأبى إلا أن أعيش كريمة أو أموت كريمة . أما عدوه فسيقضى عليه بنفسه ، كما تعوّد مع أعدائه .
فضرب أحمس الأرض بقدمه ، وقال بحنق شديد :

ـ لماذا كل هذا العناء؟ ما أنت إلا جارية أعماها الغرور والكبرياء والطبع الفاسد . لقد توهمتك شيئا ، فيما مضى .. وظهرت حقيقتك غيره تماما .. فسحقا للأوهام جميعا .

وغادر المخدع ، وأمر كبير حراسها بنقلها إلى سفينة أخرى تحت الحراسة الشديدة . وغادر السفينة ضيّق الصدر ، مكفهر الوجه . وعاد فى عجلته إلى المعسكر .

٢١

ضاق الملك بالسكون ، فأمر قواده بالتأهب .

وفى فجر اليوم التالى ، زحف الجيش بجموعه الجرارة ، وأقلع الأسطول ، فبلغ بطلمايس فى يومين . ولم يظهر حولها أثر للعدو . فدخلتها الطلائع فى سلام . وتبعها الجيش . وأوغلت الطلائع شمالا حتى بانوبوليس آخر بلدان طيبة الشمالية . ودخلتها بلا مقاومة . وزفت البشرى إلى الملك أحمس ، فصاح :

ـ لقد جلا الرعاة عن مملكة طيبة .

فقال حور :

ـ وسيجلون عن مصر قريبا .

ودخل الجيش بانوبوليس مزهوا ظافرا . ونفخ فى الأبواق إعلانا للنصر. ورفعت الأعلام المصرية على سور المدينة ـ وانتشر الجنود فى الأسواق ، واختلطوا بأهلها ، يهتفون : وينشدون . وشمل المدينة فرح جنونى . وأولم الملك وليمة فاخرة ، لقواد الجيش والأسطول والحاشية . وقال الملك لرجاله :

ـ غدا نخترق حدود المملكة الشمالية ، ونرفع أعلام مصر على أسوارها ، لأول مرة منذ أكثر من مائة عام .

فصاح الرجال ، وهتفوا طويلا باسمه .

ولكن فى أصيل ذلك اليوم ، رأى الحراس كوكبة من العجلات قادمة ، تعدو نحو المدينة ، من الشمال ، رافعة راية بيضاء . فأحاط بها الجند ، وسألوا عن

صفحة فارغة

مقصدها . فقال أحد رجالها إنهم رسل أبوفيس إلى أحمس . فمضى بهم الحراس إلى المدينة ـ وعلم أحمس ، فذهب إلى قصر حاكم المدينة ، ومعه حور وقائد الأسطول والقائدان محب وريب .

وجلس الملك على كرسى الحاكم ، وأذن للرسل بالدخول . وكانوا خليطا من القواد والحجاب ، فى الثياب العسكرية والمدنية ، تسبقهم لحاهم الطويلة . ولم يكن يبدو على وجوههم شيء من التحدى والغلظة ، كما توقع أحمس . بل اقتربوا من مجلس الملك ، وانحنوا جميعا فى إجلال واحترام ، حتى كاد الملك يعلن دهشته . وقال كبيرهم :

ـ حياك الرب ياملك طيبة . نحن رسل فرعون مصر السفلى والوسطى إليك .

فألقى أحمس عليهم نظرة دهشة ، وقال بهدوء :

ـ حياكم الرب يارسل أبوفيس . ماذا تريدون ؟ .

وبدا على الرسل الاستياء لعدم ذكر أحمس ألقاب مليكهم .

ولكن كبيرهم قال :

ـ أيها الملك ، نحن رجال حرب ، شجعان بواسل . ونعجب بالبطل ، وإن كان عدوًّا لنا . وننزل عند حكم السيف ، وإن كان علينا . ولقد انتصرت أيها الملك ، واستردت عرش مملكتك . فحقٌّ لك ملكها ، كما حقٌّ علينا تسليمها . فهى مملكتك ، وأنت مليكها . وفرعون يقرئك السلام ، ويعرض عليك حقن الدماء ، وصلحا شريفا يحترم الحقوق ، ويصل ما انقطع من علاقات المودة بين مملكة الجنوب ومملكة الشمال .

أصغى الملك فى هدوء ظاهر ودهشة باطنة ، وسأل الرجل :

ـ أجئتم حقا تطلبون سلاما ؟ .

فقال الرجل :

ـ نعم أيها الملك .

فقال أحمس بصوت فيه عزم وحزم :

ـ وأنا أرفض هذا السلام .

ـ ولماذا تصر على الحرب أيها الملك ؟ .

فقال أحمس :
ـ لأنى ما أعلنتها عليكم لأسترد طيبة . ولكنى عاهدت ربّى وقومى على أن أحرر مصر جميعها . فإذا كان الذى بعثكم ، يريد السلام .. فليترك مصر لأهلها ، وليرجع بقومه إلى صحارى الشمال التى جاء منها .
فسأله الرسول بصوت غليظ :
ـ أهذه هى الكلمة الأخيرة ؟ .
فأكدها أحمس بثقة وقوة . فقام الرسل واقفين ، وقال كبيرهم :
ـ ما دمت تريد الحرب ، فستكون حربا ضروسا بيننا وبينكم .
وانحنى الرجال للملك مرة أخرى ، وغادروا المكان فى خطى ثقيلة .

٢٢

لبث أحمس فى بانوبوليس يومين كاملين . ثم أرسل الطلائع لاختراق حدود دولة أبوفيس . وزحف أحمس على رأس جيش لم تشهد مصر له مثيلا فى عَدده أو عُدده . وأقلع أسطول أحمس أبانا الجبار .
وفى طريق الزحف ، أبلغت الطلائع الملك أن جيش الرعاة معسكر فى جنوب أفروديتوبوليس فى جموع لا يحيط بها الحصر. ولم يكن يهم الملك عدد الرعاة . ولكنه سأل الحاجب حور :
ـ هل ياترى ، لايزال لدى أبوفيس قوة من العجلات يلقانا بها ؟ .
فقال حور :
ـ ما من شك يامولاى ، أن أبوفيس قد فقد العدد الأكبر من فرسانه ، وإلا ما طلب الصلح وسعى إلى السلام . والأهم أن الرعاة فقدوا ما هو أغلى من الفرسان والعجلات ، فقدوا الثقة والأمل .
واستمر تقدم الجيش ، حتى اقترب من معسكر عدوه . ولاح فى الأفق نذير المعركة . فتأهبت فرقة العجلات لخوض المعركة بقيادة الملك .
وأهاب بالقواد قائلا :

ـ سنقاتل على أرض حرّمت علينا أكثر من مائتى عام . فلنتقدم بقلوب قوية ، ولنضرب ضربة هائلة ، وقد حبانا الرب بالعدد والأمل . أما العدو فقد خذله بالخسائر واليأس . وإنى على رأسكم ، كما كان سيكننرع وكما كان كاموس .

وأمر الملك طلائعه بالهجوم ، فانقضّت كالنسور الكاسرة . وراقبها الملك ليرى كيف يلقاها العدو . فشاهد قوة من عجلاته ، تقدر بمائتين ، ترد على هجومها ، وتحاول الإحاطة بها لحصارها . فانقض الملك من جميع الجهات ، يهاجم على رأس فرقة العجلات ، تدفعه الرغبة فى القضاء على عجلات العدو . وأدرك الهكسوس أن فرسانهم لا يمكن أن يثبتوا أمام قوات تفوقهم أضعافا . فقذف أبوفيس بكتائب من الرماة وحملة الرماح . ودارت معركة شديدة . ولم تنفع الرعاة شجاعتهم ، وقُضِى على قواتهم الراكبة .

وبات الجيش ليلته ، وأحمس لا يدرى ، أيلقاه أبوفيس بمشاته مستيئسا ، أم يفرّ بجيشه مؤثرا السلامة كما فعل من قبل .

ووضح الأمر فى الصباح ، حين رأى الملك جموع الرعاة تتقدم لاحتلال مواقعها ، والأقواس والرماح فى أيديها .

وقال حور عندما شاهدهم :

ـ الآن تدور الدائرة عليهم يامولاى . ويتعرض أبوفيس بمشاته لبأس عجلاتنا ، كما تعرض مليكنا سيكننرع لبأس عجلاته قبل عشرة أعوام .

فانشرح صدر الملك . وتهيأ للهجوم بفرقة العجلات تؤيدها قوات مختارة من الرماة وفرق الأسلحة الأخرى . وانقضت العجلات على مواقع الرعاة ، تملأ الجو أمامها بسهامها الطائرة . فاخترقت الصفوف فى مواضع كثيرة ، والرماة وراءها يحمون ظهورها ، ويطاردون من يتفرّق من العدو ، فيقتلون ويأسرون .

قاتل الرعاة بما عرف عنهم من شجاعة ، ولكنهم كانوا يتساقطون سقوط الأوراق الجافة التى تعرضت لرياح الخريف العاتية . وسيطر المصريون على الميدان ، وخشى أحمس أن يفلت أبوفيس من يده ، فهاجم أفروديتوبوليس ، كما هاجم الأسطول شواطئها ، ولكنه لم يجد أثرا للرعاة داخل أسوارها . ثم وافته الكشافة بأن أبوفيس فارق المدينة مع قوات جيشه بعد هجوم ليلة أمس . فقال حور للملك :

ـ لعل أبوفيس يسرع الآن ، إلى هواريس ليحتمى بأسوارها المنيعة .

ولم يأسف أحمس طويلا على إفلات أبوفيس من يده . وكان سروره بالغا بفتحه بلدا من بلاد مصر التى حرم دخولها على قومه مائتى عام . واشتغل بتفقد أحوالها وأهلها عن كل شىء .

٢٣

تقدم الجيش فى زحفه العظيم ، لا يجد مقاومة ولا أثرا للعدو . يستقبله أهل البلدان والقرى ذاهلين من الفرح ، لا يصدقون أن الذى يحرر بلدانهم من عدوهم ، ملك منهم ، يبعث مجد الفراعين من جديد . ووجد أحمس أن الرعاة قد فروا عن المدن ، تاركين قصورهم وضياعهم ، حاملين ما استطاعوا حمله من متاعهم وأموالهم . وسمع ، فى كل مكان وصله ، أن أبوفيس يسرع فى الهرب بجيشه وقومه إلى الشمال .

استرد الملك فى شهر ثلاث مدن كبيرة مع القرى المحيطة بها . ثم بلغ هرموبوليس ، مسقط رأس الأم المقدسة توتيشيرى . فكان لدخولهم فيها وقع عظيم فى نفس أحمس ، وكتب إلى جدته رسالة مؤثرة يهنئها فيها باسترداد موطنها الأول .

ثم تقدم الجيش فى زحفه المظفر . ودخل بلدة بعد أخرى ، إلى أن انحدر بين الأهرام فى طريق منف العظيمة ، غير عابئ بمشاق السفر وطول الطريق . وكان أحمس يفك القيود ، ويحطم الأغلال التى يعيش فيها شعبه البائس ، وينفخ فيه من روحه الكبيرة حياة جديدة ، حتى قال له حور يوما :

ـ عظمتك الحربية يامولاى ، لا يضارعها سوى مقدرتك السياسية وكفاءتك الإدارية . لقد غيّرت معالم البلدان ، فمحوت أنظمة وأنشأت أنظمة ، ووليت حكاما وطنيين ، فدبت الحياة مرة أخرى فى شرايين الوادى . وشاهد الناس لأول مرة ـ منذ عهد طويل ـ حكاما مصريين وقضاة مصريين . فارتفعت الرءوس المنكسة ، ولم يعد أحد يُعيَّر بسمرته ، بل صارت مفخرته .

أَلاَ فليحفظك الرب آمون ، ياحفيد سيكننرع .

كان الملك يعمل مخلصا جاهدا ، لا يعرف اليأس أو الكلل ، ليرد إلى قومه العزة والشبع والرغد والعلم .

على أن قلبه لم ينج من همومه الخاصة . فأعياه الهوى والكبرياء . وكان كثيرا ما يضرب الأرض بقدمه ، ويقول لنفسه : « لقد خُدِعت .. وما هى إلا امرأة بلا قلب » . وكان يرجو أن يجد فى العمل النسيان والعزاء . ولكنه وجد روحه تسرى ، بالرغم منه ، إلى تلك السفينة .. فى مؤخرة أسطوله .

٢٤

استمر زحف الجيش ، وأخذ يقترب من منف الخالدة حتى لاحت له أسوارها البيضاء العالية . وظن أحمس أن الرعاة سيدافعون عن عاصمة ملكهم دفاع المستميت . ولكن أخطأ ظنه . ودخلت طلائعه المدينة فى سلام . وعلم أن أبوفيس تقهقر بجيشه نحو الشمال الشرقى ، فدخل أحمس منف فى حفل شعبى لم يشهد له مثيلا من قبل . واستقبله أهلها استقبالا حماسيا مهيبا . وسجدوا له ودعوه ابن منفتاح .

مكث الملك فى منف عدة أيام ، زار ربوعها ، وشاهد أسواقها وأحياءها الصناعية ، وطاف بالأهرامات الثلاثة ، وصلّى فى معبد أبى الهول ، وقدم فيه القرابين . وكان أحمس يعجب كيف لم يدافع الرعاة عن منف . فقال القائد محب :

ـ بأس عجلاتنا يامولاى ، ولن يتعرّضوا لها مختارين .

وقال الحاجب حور بثقة :

ـ السفن ، يتوالى مجيئها إلينا ، محملة بالعجلات والجياد من مقاطعات الجنوب . وليس أمام أبوفيس إلا الالتجاء إلى أسوار هواريس .

وتشاوروا فى الوجهة التى يتجهون إليها بعد أن انبسطت رقعة الغزو أمامهم ، فقال القائد ريب :

ـ لاشك أن العدو جلا عن الشمال كله ، وانحصر فى الشرق وراء أسوار هواريس . فينبغى أن نتجه إليه بقواتنا كاملة .

صفحة فارغة

غير أن أحمس كان شديد الحذر . فأرسل جيشا صغيرا إلى الغرب ، وآخر إلى الشمال ، وسار بقواته الرئيسية وأسطوله العظيم شرقا فى طريق أون . ومضت الأيام ، وهم يسيرون فى الأرض تدفعهم الحماسة والأمل ، أن يضربوا الضربة الأخيرة ، ويكللوا كفاحهم الطويل بالنصر الحاسم . ودخلوا أون مدينة رع الخالدة ، ثم بلدتين بعدها ، وسلكوا الطريق المؤدى إلى هواريس ، إلى أن لاحت أسوارها الهائلة ، فصاح أحمس :

ـ هذا آخر حصن للرعاة فى مصر.

فقال له حور ، وهو ينظر إلى الحصن .

ـ حطّم أبوابه يامولاى ، يخلّص لك وجه مصر الجميل .

٢٥

وقف أحمس ورجاله جنوبى الحصن الهائل ، يقلّبون وجوههم حيارى فى الأسوار العظيمة المترامية . وضرب الجيش خيامه ، وامتدت صفوف الجند محاذين السور الجنوبى . وتقدم الأسطول فى النهر غربى السور الغربى . وكان أحمس يستمع إلى ما يقوله أهل المدينة عن الحصن ، ويفحص الأرض المحيطة به والنهر الجارى غربه ، وكان عقله لايكف عن التفكير. وفى أثناء ذلك ، سيّر قوات راكبة ومشاة إلى القرى المحيطة بالمدينة ، فاستولت عليها دون عناء . وأصبح حصاره للحصن كاملا فى زمن يسير. ولكنه ورجاله ، كانوا يعلمون أن الحصار لا نتيجة له . فالمدينة مكتفية بحقولها الشاسعة داخل أسوارها . فلن يؤثر الحصار فيها شيئا ولو امتد أعواما . وسيبقى أحمس هو وجيشه يعانيان الملل والانتظار فضلا عن أهوال الجو وتقلباته .. وبدون أمل . وفيما كان أحمس يجول حول الحصن ، خطر له خاطر. فدعا رجاله إلى خيمته ليشاورهم ، وقال لهم :

ـ أشيروا علىّ . إنى أرى الحصار ضياعا للوقت وتبديدا للقوى . وأرى الهجوم نوعا من العبث ، وانتحارا صريحا لنا . ولعل العدو يتمنى أن نهجم عليه ، ليصيد رجالنا البواسل ، أو يوقعهم فى خنادقه . فما الرأى ؟ .

فعرض القائد ريب رأيا عارضه حور وانتقده . فقال القائد محب بحماسة :

ـ لقد دفعنا ثمن طيبة غاليا . والكفاح بذل وفداء . فلماذا لا نؤدى ثمن هواريس ، ونهجم كما هجمنا على حصون طيبة ؟ .

فقال القائد ريب :

ـ نحن لا نضنّ بنفوسنا . ولكن الهجوم على أربعة أسوار ضخمة تفصل بينها خنادق ملأى بالماء ، هلاك لجنودنا بلا ثمن .

وكان الملك صامتا يفكر . فقال وهو يشير إلى النهر الجارى تحت سور المدينة الغربى :

ـ هواريس حصينة ، لا تؤخذ ولا تجوع .. ولكنها قد تظمأ ! .

فنظر الرجال إلى النهر ، وبدت على وجوههم الدهشة . وقال حور بذهول :

ـ كيف تظمأ هواريس يامولاى ؟ .

ـ بأن نحوّل عنها مياه النيل .

ـ وهل يمكن القيام بهذا العمل الجبار ؟ .

ـ لا يعوزنا المهندسون ولا العمال .

ـ وكم تقتضينا من الوقت يامولاى ؟ .

ـ عاما أو عامين أو ثلاثة أعوام . ماذا يهم الزمن ما دامت هذه هى الوسيلة الوحيدة . فيصبح على أبوفيس الاختيار بين الموت ظمأ أو الخروج لقتالنا .

وسيغفر لى شعبى أنى عرضّت للخطر والهلاك من فى هواريس من المصريين المزارعين وهم القلّة ، كما غفر لى أن فعلت ذلك ببعض نساء طيبة .

٢٦

توفر مهندسو طيبة المشهورون على دراسة فكرة أحمس ، باهتمام وشغف . وقالوا إنه يمكن تنفيذها ، بشرط أن يُفسح لهم فى الزمن ، وإمدادهم بآلاف العمال . وعلم أحمس أن مشروعه يلزمه عامان للتنفيذ . وبعث بالرسل إلى البلدان يحثون أهلها على التطوع للعمل العظيم . وجاء العمال جماعات . وافتتح الملك المشروع العظيم ، وأمسك

فأسا وضرب به فى الأرض معلنا ابتداء العمل . فتبعته السواعد المفتولة تكدّ وتعمل على نغمات الأغانى والأناشيد .

ولم يكن أمام الملك وجيشه ، سوى الانتظار الطويل ، والتدريب اليومى المتواصل .

وفى فترة الانتظار حمل إليه رسول رسالة من الأم المقدسة توتيشيرى ، جاء فيها :

«مولاى ابن آمون ، فرعون مصر العليا والسفلى ، حفظه الرب وأيده بالنصر والفوز» .

« ما أسعدنا جميعا أن نعلم أن مصر حُرّرت من العبودية والهوان ، وأن عدوها ومذلّها حبس نفسه بين جدران حصنه ، ينتظر ـ فى خوف ـ القضاء عليه » ..

« وقد شاء الرب القدير أن يحبوك بعطفه ورحمته ، وأنت الذى أذللت عدوّه وأعليت كلمته ، فرزقك بغلام نورًا لعينيك ووليًّا لعهدك ، أسميته أمنحتب ، تبركا بالرب المعبود ..

« وقد تلقيته بيدى كما تلقيت أباه وجدّه وجد أبيه من قبل ..

« وقلبى يحدثنى بأنه سيكون ولىّ عهد مملكة عظيمة ، متعددة الأجناس واللغات والأديان ، يرعاها أبوه الحبيب ... » .

وخفق قلب أحمس خفقان الأبوة ، وفرح فرحا عظيما ، أنساه بعض ما يعانى من آلام الهوى المكبوت . وأعلم رجاله بمولد ولى عهده أمنحتب .. فكان يوما مشهودا .

٢٧

مضت الأيام حافلة بجلائل الأعمال التى أنجزتها أكبر العقول وأشد السواعد وأعلى الهمم . وذات يوم ، وكان قد مضى على الحصار عدة أشهر ، رأى الحراس عجلة قادمة من ناحية الحصن ، وعلى مقدمتها علم أبيض . فاستقبلها بعض الحراس ، ووجدوا بها ثلاثة من الحجاب . وقال كبيرهم إنهم رسل الملك أبوفيس إلى الملك أحمس . فأُبلِغ الملك . فعقد مجلسا من حاشيته وقواده . وأمر بإدخال الرسل إليه . وجىء بالرجال ، يسيرون فى تواضع وانكسار .. ذهبت عنهم الخيلاء والكبر .. وبدوا

كأنهم من غير قوم أبوفيس . وانحنوا بين يدى الملك . وقال كبيرهم :

ـ حياك الرب أيها الملك .

فرد عليه أحمس :

ـ وحياكم يارسل أبوفيس .. ماذا يريد ملككم ؟ .

فقال الرسول :

ـ أيها الملك .. رجل السيف رجل مغامر ، ينشد النصر ، ولكن قد يدركه الموت . ونحن رجال حرب . وقد مكّنتنا الحرب من وطنكم ، فحكمناه مائتى عام أو تزيد ، كنا فيها السادة . ثم قُضى علينا بالهزيمة ، فغلبنا على أمرنا ، وأُجبرنا على الاعتصام بقلعتنا . ونحن ، أيها الملك ، رجال أشداء نقدر على تحمل الهزيمة ، كما قدرنا على جنى ثمار النصر..

فقال أحمس غاضبا :

ـ أرى أنكم أدركتم ما يعنيه هذا التحويل الذى يجريه قومى فى مجرى النيل ، فجئتم تستعطفون .

فهز الرجل رأسه الضخم ، وقال :

ـ كلا أيها الملك . نحن لا نستعطف أحدا ، ولكننا نقر بالهزيمة . وقد أرسلنى مولاى لأعرض عليك أمرين تختار ما تشاء منهما : فإما الحرب إلى النهاية . وفى هذه الحال ، لن ننتظر وراء الأسوار حتى نموت جوعا وعطشا . ولكننا سنقتل الأسرى من قومك وهم يزيدون على ثلاثين ألفا ، ثم نقتل نساءنا وأطفالنا بأيدينا ، ونهجم على جيشك بثلاثمائة ألف مقاتل ، كلهم راغبون فى الموت متعطشون للانتقام .

وسكت الرجل حتى يجمع أنفاسه ، ثم استدرك وقال :

ـ وإما أن تردوا لنا الأميرة أمنريدس والأسرى من قومنا ، وتؤمنوننا على أرواحنا وأموالنا ومتاعنا ، فنرد لكم رجالكم ، ونخلى هواريس ، ونولّى وجوهنا شطر الصحراء التى جئنا منها ، تاركين لكم بلادكم ، وبذلك ينتهى الصراع الذى استمر قرنين من الزمان .

وسكت الرجل . فعرف الملك أنه ينتظر جوابه . ولم يكن الجواب حاضرا . فقال للرسول :

ـ هلاّ انتظرت حتى نقطع برأى ؟ .

فقال الرسول :

ـ كما تشاء أيها الملك . فمولاى أمهلنى نهار اليوم .

٢٨

اجتمع الملك برجاله فى مقصورة السفينة الفرعونية ، وقال لهم :

ـ أشيروا علىّ برأيكم .

وكانوا جميعا ، بغير تشاور ولا اتفاق ، على رأى واحد . فقال حور :

ـ مولاى ، لقد انتصرت على الرعاة فى مواقع كثيرة ، وأقروا لك بالنصر ، وعلى أنفسهم بالهزيمة . فمحوت بذلك آثار هزائمنا فى ماضينا الأسيف ، وقتلت منهم خلقا كثيرا ، فانتقمت لقتلى قومك . فلا لوم علينا ، أن نشترى حياة ثلاثين ألفا من رجالنا . ونوفّر على أنفسنا ما لا يدعو إليه واجب ، ما دام عدونا سيجلو عن بلادنا مغلوبا على أمره ، ويتحرر وطننا إلى الأبد .

وأيد القائدان ريب ومحب رأى حور . وقال أحمس أبانا :

ـ سنشترى حياة ثلاثين ألفا من الأسرى بالأميرة الأسيرة، وجماعة قليلة من الرعاة.

واستمع الملك إليهم باهتمام شديد ، وقال :

ـ نعم الرأى ـ ولكنى أرى أن ينتظر رسل أبوفيس فترة أخرى ، حتى لا يظن أننا أسرعنا فى الموافقة ، لضعف أو تعب من الكفاح .

وغادر الرجال السفينة ، وخلا الملك إلى نفسه . وكان ، رغم دواعى الابتهاج ، كئيبا ضيّق الصدر . لقد توّج كفاحه بالفوز المبين ، وجثا له عدوه الجبار . ومن الغد ، يحمل أبوفيس متاعه ، ويفرّ إلى الصحراء التى جاء منها . فما باله لا يفرح ولا يبتهج ؟ أو ما بال فرحه ليس صافيا ، وابتهاجه ليس كاملا ؟ لقد حلّت الساعة الخطيرة ، ساعة الوداع إلى الأبد . كان قبل هذه الساعة ، يائسا حقا ، ولكنها كانت هناك فى السفينة الصغيرة . فماذا يفعل غدا ، إذا رجع إلى قصر طيبة ، وذهبت هى إلى بطن الصحراء المجهولة ؟ أيتركها تذهب دون نظرة وداع . وأجاب قلبه : لا .

وحطم قيود الكبرياء ، وقام واقفا ، وفارق المقصورة . وأخذ زورقا إلى سفينة الأميرة الأسيرة ، وهو يقول لنفسه : « مهما يكن استقبالها فسأجد ما أقوله ... » وصعد إلى السفينة ، ومضى إلى المخدع . فحياه الحراس ، وفتحوا له . واجتاز الباب خافق الفؤاد ، فرأى الأسيرة جالسة فى الصدر . فبدت الدهشة على محياها الجميل ، فلم تكن تتوقع مجيئه . وتفحصها أحمس بنظرة عميقة ، فوجدها جميلة كعهده بها . فعض شفته ، وقال لها :

ـ أنعمى صباحا أيتها الأميرة .

فرفعت إليه عينين لم تذهب عنهما الدهشة ، ولا تدرى بماذا تجيب . فقال لها الملك بصوت هادئ :

ـ أنت منذ اليوم طليقة أيتها الأميرة .

فظهر على وجهها أنها لا تفهم شيئا ، فعاد يقول :

ـ ألا تسمعين ما أقول ؟ أنت منذ الآن حرة طليقة .

فازدادت دهشتها ، وقالت بلهفة :

ـ صحيح ما تقول ؟ صحيح ما تقول ؟ .

ـ نعم صحيح .

فأضاء وجهها ، وتورّد خدها ، ثم ترددت هنيهة ، وتساءلت :

ـ ولكن كيف كان ذلك ؟ .

ـ طبعا تتمنين أن يكون انتصار أبيك هو الذى ردّ إليك حريتك ، ولكنها ، للأسف ، هزيمته هى التى أنهت عبوديتك .

فأمسكت لسانها ، ولم تنبس بكلمة . فأخبرها باختصار ، بما عرضه عليه رسول أبيها ، وما تم الاتفاق عليه . ثم قال : وعما قليل تذهبين إلى أبيك وترحلين معه . فمبارك عليك .

كست ظلال الحزن وجهها ، وجمدت أساريرها ، فسألها أحمس :

ـ هل حزنك للهزيمة أكبر من فرحك لحريتك ؟ .

فقالت :

ـ يجدر بك ألا تشمت بى . سنغادر بلادركم كراما كما عشنا فيها كراما .

صفحة فارغة

فقال أحمس بجزع ظاهر :

ـ لست أشمت بك أيتها الأميرة . لقد ذقنا مرات الهزيمة من قبل . ونشهد لكم ، بعد الحروب الطويلة ، بالشجاعة والبسالة .

فقالت بارتياح :

ـ شكرا لك أيها الملك .

وسمعها لأول مرة ، تتكلم بلهجة خالية من الغضب والكبرياء ، فتأثر وقال لها ، وهو يبتسم ابتسامة حزينة :

ـ أتدعيننى ملكا أيتها الأميرة ؟ .

فقالت وهى تغض بصرها :

ـ لأنك ملك هذا الوادى دون شريك . أما أنا فلن أدعى أميرة بعد اليوم .

فازداد تأثر الملك ، وقال بحزن :

ـ أيتها الأميرة ، لقد خبرتم الحياة حلوها ومرها ، ولايزال أمامكم الغد .

فقالت بطمأنينة عجيبة :

ـ نعم أمامنا الغد وراء سراب الصحراء المجهولة ، وسنلاقى حظنا ببسالة .

ساد الصمت ، والتقت عيناهما ، فقرأ فى عينيها الصفاء والرقة ، فتذكر صاحبة المقصورة التى أنقذت حياته ، وسقته رحيق المودة والحنان . وكأنه يراها لأول مرة بعد ذلك العهد الطويل ، فزلزل فؤاده ، وقال بجد وجزع :

ـ عما قليل يفرّق بيننا البعد ، ولن تبالى بذلك . ولكنى سأذكر دائما أنك كنت معى فظة غليظة .

فلاح الحزن فى عينيها ، وافترّ ثغرها عن ابتسامة خفيفة ، وقالت :

ـ أيها الملك ، أنت لا تعرف عنا إلا القليل . نحن قوم ، الموت أحب إلى نفوسهم من الهوان .

ـ لم أُرِدْ بك الهوان قط . ولكن غرّنى الظن بأن لى منزلة عندك .

فقالت بصوت خافت :

ـ أليس من الهوان أن أفتح ذراعيّ لآسرى وعدو أبى .

ـ الحب لا يعرف هذا المنطق .

فلاذت بالصمت ، وكأنها تؤمّن على قوله . وتمتمت بصوت خافت « لا ألومن إلا نفسى » . وبحركة فجائية ، مدت يدها إلى وسادة فراشها ، وأخرجت من تحتها العقد ذا القلب الزمردى ، ووضعته حول عنقها بهدوء واستسلام : فارتمى جانبها غير متمالك ، وأحاط عنقها بذراعه ، وضمها إلى صدره بجنون وعنف ، ولم تقاومه البتة ، ولكنها قالت بحزن :

ـ لقد فات الأوان .

فاشتد ضغط ذراعيه حولها ، وقال بصوت متهدج :

ـ أمنريدس .. كيف هان عليك أن تقولى هذا ؟ كلا لن أدعك تذهبين .

فنظرت إليه بعطف وإشفاق ، وقالت له :

ـ وماذا أنت فاعل ؟ .

ـ سأبقيك إلى جانبى ؟ .

ـ ألا تدرى ما يقتضيه بقائى إلى جانبك ، هل تضحى من أجلى بثلاثين ألف أسير من قومك ، وبأضعافهم من جنودك ؟ .

اصغ إلىّ ياأسفينيس ، ودعنى أناديك بهذا الاسم العزيز . ليس بدّ من الفراق . سنفترق .. سنفترق .. فأنت لا ترضى التضحية بالأسرى من قومك .. ولا أنا أرضى بتقتيل أبى وقومى .. فليتحمل كل منا نصيبه من الألم .

فنظر إليها بذهول ، وقال لها برجاء :

ـ أمنريدس .. لا تتعجلى اليأس .. دعينى أطرق جميع الأبواب ، حتى باب أبيك .. فماذا يكون لو طلبت منه يدك ؟ .

فابتسمت ابتسامة حزينة ، وقالت وهى تمس يده برفق :

ـ واأسفاه ياأسفينيس .. هل تظن أبى يقبل أن يزوج ابنته من الملك المظفّر الذى قهره وقضى عليه بالنفى من البلاد التى ولد فيها وتربّع على عرشها ؟ أنا أعرَف منك بأبى .. فليس هناك فائدة ترجى .. وليس لنا سوى الصبر .

وأصغى إليها مذهولا . وبدا لعينيه كل شىء قاتما . فقال بغضب :

ـ أصغر جندى من جنودى لا يهمل قلبه ، ولا يسمح لأحد بأن يفرق بينه وبين من يحب .

ـ أنت ملك يامولاى ، والملوك أثقل الناس واجبا .

ـ آه ما أشقانى .. لقد أحببتك منذ أول لقاء فى سفينتى .

فخفضت عينيها ، وقالت بصدق وبساطة :

ـ طرق الحب قلبى فى ذلك اليوم نفسه .. ولكنى لم أكتشفه إلا فيما بعد .. ليلة أجبرك القائد رخ على مبارزته .. وبت ليلتى حائرة مضطربة ..

ـ أواه .. كيف تكون حياتى بدونك ..

ـ كما تكون حياتى بدونك ياأسفينيس .

فضمها إلى صدره ، وألصق خدها بخده ..

وطرق كل سبل الفكر يرجو حلا ، فاعترضه اليأس والقهر .. وأحس كل منهما أنه قد آن أن ينفصلا .. ولكن لم يحرك أحدهما ساكنا ، فلبثا كشىء واحد .

٢٩

غادر أحمس سفينة الأسيرة ، تكاد لا تحمله قدماه . وكان ينظر إلى شىء فى كفه ، ويتمتم : « أهذا كل ما تبقى لى من حبى ؟ » وكانت سلسلة العقد الزمردى هى التى تبقت له من حبه ، أهدتها إليه الأميرة تذكارا ، واحتفظت بالقلب لنفسها : وركب الملك عجلته ، ومضى إلى معسكر جيشه ، واستقبله رجاله . وكان الحاجب حور يختلس منه نظرات قلقة مشفقة .

ودعا الملك برسول أبوفيس ، وقال له :

ـ أيها الرسول ، لما كانت غايتى أن أحرر وطنى من سيطرتكم ، وهو مارضيتم به ، فقد اخترت الحل السلمى حقنا للدماء . وستتبادل الأسرى فى الحال . ونطوى هذه الصفحة السوداء فى تاريخ بلادى .

فأحنى الرسول رأسه ، وقال :

ـ نعم الرأى أيها الملك .

فقال أحمس :

ـ الآن ، سأترككم لتتباحثوا معا فى تفاصيل التبادل والجلاء .

وقام الملك ، فقام الجميع وقوفا ، وانحنوا له إجلالا . فحياهم بيده وغادر المكان.

٣٠

فى مساء ذلك اليوم ، تم تبادل الأسرى . ففتح باب من أبواب هواريس ، وخرجت منه جماعات الأسرى المصريين ، رجالا ونساء . وكان يهتفون لمليكهم مسرورين . وذهب الأسرى الرعاة ، وعلى رأسهم الأميرة أمنريدس ، إلى المدينة فى سكون ووجوم .

وفى غداة اليوم التالى ، بكّر أحمس وحاشيته إلى هضبة قريبة تشرف على أبواب هواريس الشرقية ، ليشهدوا خروج الرعاة من آخر مدينة مصرية . وكانوا لا يخفون فرحهم وابتهاجهم . وكان القائد محب يقول :

ـ عما قليل ، يأتى حجاب أبوفيس بمفاتيح هواريس ليسلموها إلى جلالة الملك ، كما سلمت مفاتيح طيبة إلى أبوفيس قبل أحد عشر عاما .

وجاء الحجاب كما قال القائد محب ، وقدموا إلى أحمس صندوقا من خشب الأبنوس ، رصت به مفاتيح هواريس . فتسلمه الملك وأعطاه حاجبه حور . ورد تحية الرجال الذين عادوا من حيث أتوا ، فى سكون وصمت .

ثم فتحت الأبواب الشرقية على مصاريعها . وبرزت أولى جماعات الرعاة الخارجين ، وكانت من الفرسان المدججين بالسلاح ، جعلهم أبوفيس فى المقدمة ، لاستطلاع الطريق المجهول . وتبعتها جماعات النساء والأطفال يمتطون ظهور البغال والحمير ، وبعضهن يُحملن فى الهوادج . واستغرق خروجهن ساعات طويلة . ثم بدا ركب عظيم ، يحيط به الفرسان من رجال الحرس ، تتبعه عربات كثيرة تجرّها الثيران . إنه ركب أبوفيس وآل بيته . فخفق قلب أحمس لمرآه . وقاوم دمعة حارة . وتساءل : تُرى فى أى مكان هى ؟ وهل تحاول البحث عنه كما يحاول ؟ وهل تذكره بمثل ما يذكرها به ؟ وهل تكتم دمعها كما يكتم دمعه ؟ . وتابع الركب بناظريه . ومازال يتبعه ببصره وفؤاده ، ويحوم حوله بروحه ، حتى غيّبه الأفق ، وابتلعه الغيب .

استيقظ الملك على صوت حور ، وهو يقول :

ـ فى هذه الساعة الخالدة ، تسعد روح مليكنا سيكننرع وبطلنا المجيد كاموس ، ويكلّل كفاح طيبة ـ التى لا تعرف اليأس ـ بالفوز المبين .

دخل جيش الخلاص هواريس الجبارة ، واحتل أسوارها المنيعة . وأمر أحمس أن يصلى الجيش صلاة جامعة للرب آمون .

ثم دعا أحمس رجاله إلى الاجتماع به ، وقال لهم :

ـ اليوم تنتهى الحرب . ولكن الكفاح لم ينته . فالسلام أشد حاجة من الحرب إلى يقظة النفوس وقوة العزائم . فهيا معا لنبعث مصر بعثا جديدا .

وبعد أن اختار لأعوانه مواقعهم الجديدة فى معركة السلام ، قال لهم :

ـ والآن عودوا إلى طيبة عاصمة ملكنا ، ليؤدى كلٌّ منكم واجبه الجديد فى موقعه الجديد .

فتساءل حور قلقا :

ـ ألا يعود فرعون على رأس جيشه إلى طيبة .

فقال أحمس ، وهو يهم قائما :

ـ بل ستقلع بى سفينتى إلى الجنوب ، لأزف بشرى النصر إلى أسرتى ، ثم أعود معها إلى طيبة ، فندخلها جميعا ، كما تركناها جميعا ...

٣١

أقلعت السفينة الفرعونية . وكان أحمس ملازما المقصورة ، ينظر إلى الأفق البعيد بوجه جامد وعينين غارقتين فى الحزن والأسى . واستغرقت الرحلة أياما . ثم لاحت دابور الصغيرة ، وكانت الأسرة الفرعونية قد انتقلت إليها لتكون قريبة من الحدود ، لتتلقى أخبار القتال فى مدّة أقل من قبلُ .

ورسا الأسطول على شاطئ المدينة عند الأصيل . وغادره الملك وحرسه ، وهرع إليهم جمع من النوبيين .

ساروا بين يديه إلى دار الحاكم رءوم . وفوجئ الحاكم والأسرة الفرعونية

بوصوله . وعقدت الدهشة والفرحة ألسنتهم . وصاح الجميع صيحة البهجة والسرور وهرعوا إليه . وكانت أسبقهم الملكة الصغيرة نيفرتارى . فقبّل خديها وجبينها ، ثم أمه الملكة ستكيموس مادة ذراعها ، فضمها إلى صدره ، وأسلم لها خديه تقبلهما بحنان . وكانت جدته الملكة أحوتبى تنتظر دورها ، فدنا منها ، وقبّل يديها وجبينها .

وأخيرا رأى توتيشيرى .. كبيرة القوم وأعزهم ، فخفق قلبه ، وأحاطها بذراعيه وهو يقول :

ـ أماه وأم الجميع .

فلثمته بشفتيها النحيلتين ، وقالت وهى ترفع إليه عينيها :

ـ دعنى أنظر صورة سيكننرع .. الحية .

فقال أحمس :

ـ اخترت أن أكون أنا الرسول الذى يبشرك بالفوز العظيم ياأماه . جيشنا الباسل حقق النصر المبين ، وهزم أبوفيس وقومه ، وطردهم إلى الصحراء التى جاءوا منها ، وحرر مصر جميعها .

فتهلّل وجه توتيشيرى ، وقالت بفرح :

ـ اليوم ينتهى أسرنا ونعود إلى طيبة ، وأجد حفيدى على عرش سيكننرع يعيد عهد امنمحيت المجيد .

وجاءت وصيفة الملكة تحمل ولى العهد بين ذراعيها ، فرفعه الملك بين يديه ، من فمه حتى التصقت به شفتاه، وابتسم امنحتب لأبيه، وعابثه بيديه الصغيرتين.

ثم دخلت الأسرة الفرعونية القصر تشملها السعادة والطمأنينة ـ وخلوا إلى أنفسهم يتسامرون ويتذاكرون أيامهم .

٣٢

حمل الجنود متاع الأسرة إلى السفينة الفرعونية . وانتقل الملك والأسرة إليها . وخرج لوداعهم الحاكم رءوم وأعضاء حكومته وأهل دابور جميعا . وقبل أن تقلع السفينة ، قال أحمس لرءوم على مسمع من رجاله :

ـ أيها الحاكم الأمين ، أوصيك خيرا بالنوبة وأهل النوبة . فالنوبة كانت مهجرنا حين ضاقت بنا الدنيا ، ووطننا عندما لم يكن لنا وطن ، وقاعدة سلاحنا وجنودنا عندما دعا الداعى إلى الكفاح . فلا تنس فضلها ، ولتكن منذ اليوم مصر الجنوب .

ثم أقلعت السفينة ، تشق طريقها نحو الشمال ، وتحمل قوما تهفو نفوسهم إلى مصر وأهلها . وبلغت السفينة حدود مصر بعد رحلة قصيرة . فاستقبلت استقبالا رائعا ، وخرج إليها رجال الجنوب يتقدمهم الحاكم شاو . وأحاطت بها زوارق الأهالى يهنئون ويهتفون ، وصعد إلى سطحها شاو وكهنة بيجة وعمد القرى وشيوخ البلاد ، ينحنون للملك ويحيون . ثم انحدرت السفينة إلى الشمال ، يستقبلها الأهلون على الشواطئ ، وتطوف بها القوارب ، ويصعد إلى سطحها عند كل بلدة الحكام والقضاة والعمد والأعيان .

واصلت السفينة سيرها أياما ، حتى لاحت فى الأفق البعيد أسوار طيبة العالية ، وأبوابها الضخمة ، وجلالها الخالد . وكان الوقت عند طلوع الفجر . فهرعت الأسرة من المخادع إلى مقدمة السفينة ، يتجلى فى نظرهم الشوق والحنين ، وتفيض أعينهم بدموع الفرح والشكر ، وتغمغم شفاههم فى صوت خافت « طيبة .. طيبة » .

أخذت السفينة تقترب من جنوب طيبة . فاستطاعوا أن يروا جموعا من الجنود وكبار القوم ، ينتظرون على الشاطئ .

رست السفينة ، وأدى الجنود التحية العسكرية لها . وصعد إلى سطحها رجال طيبة ، وعلى رأسهم رئيس الوزراء حور ، ومعهم كاهن طاعن فى السن يتوكأ على عصاه ، ويمشى منحنى القامة وبخطى ثقيلة .

ألقى حور كلمة تحية « لمحرر مصر ومخلّص طيبة وقاهر الرعاة .. فرعون مصر وسيد الجنوب والشمال » . ثم أشار إلى الكاهن الجليل ، وقال :

ـ ائذن لى يامولاى ، أن أقدم إلى جلالتك نوفرآمون الكاهن الأكبر لمعبد آمون .

فنظر إليه أحمس باهتمام ، ومدّ له يده مبتسما ، وقال باحترام :

ـ يسرنى أن أراك أيها الكاهن الأكبر .

فلثم الكاهن يده ، وقال :

ـ كنت يامولاى قد آليت على نفسى ألا أبرح حجرتى ، مادام فى مصر رجل من

الرعاة الذين أذلوا طيبة ، وقتلوا سيدها المجيد وأهملت نفسى ، وقنعت من الدنيا بلقيمات وجرعات من الماء القراح . ومازلت حتى قيّض الله لمصر ابنه أحمس ، فحمل على عدونا ، وهزمه ، وطرده من بلادنا ، فأطلقت سراح نفسى لأستقبل الملك المجيد وأدعو له .

فابتسم الملك له . وقال حور لمولاه :

ـ طيبة تنتظر مولاها ، والجيش مصطف فى الطرق ، ولكن لكاهن آمون الأكبر رجاء .

فسأل أحمس :

ـ وما رجاء كاهننا الأكبر؟ .

فقال الكاهن باحترام :

ـ أن يتفضل مولاى بزيارة معبد آمون ، قبل أن يذهب إلى القصر الفرعونى .

فأجاب أحمس مبتسماً :

ـ بكل السرور والسعادة .

٣٣

غادر أحمس السفينة ، تتبعه الملكات ورجال مملكته . وصعد إلى هودج جميل ، واعتلت الملكات هوادجهن . وسارت فى الأمام فرقة من الحرس الملكى ، وفى الخلف عجلات الحاشية تتبعها فرقة أخرى من الحرس الملكى . واتجه الموكب نحو باب طيبة الجنوبى. وكان مزينا بالأعلام والزهور، يصطف على جانبيه الجنود الأشداء.

اجتازت الهوادج الفرعونية باب المدينة . ونفخ الحراس فوق الأسوار فى الأبواق ، وتساقطت على الداخلين الزهور والرياحين .

وضج الجو بالهتاف الصاعد من القلوب .. وافتتن الناس برؤية الأم المقدسة فى مهابة الشيخوخة ، وحفيدها الباسل فى عنفوان الشباب . وشق الموكب طريقه كأنما يخوض بحرا من البشر .

وعلى باب المعبد ، استقبل كهنة آمون الملك وأسرته . وساروا بين يديه إلى بهو

الأعمدة ، حيث قُدمت القرابين على المذبح ، وأنشد الكهنة نشيد الرب بأصوات عذبة رخيمة . ثم قال الكاهن الأكبر للملك :

ـ مولاى ، أستأذنك فى الذهاب إلى قدس الأقداس ، لأحضر أشياء ثمينة تهم جلالتكم .

أذن له الملك . ومضى الرجل ومعه نفر من الكهنة . وغابوا قليلا . ثم عاد الكاهن يتبعه الكهنة ، يحملون تابوتا وعرشا وصندوقا من الذهب ، وضعوها جميعا أمام الأسرة الفرعونية باحترام وإجلال . وتقدم نوفرآمون ، ووقف أمام أحمس ، وقال بصوت ساحر نفاذ :

ـ مولاى ، هذه أثمن مخلفات المملكة المقدسة . عهد بها إلىّ ، منذ اثنى عشر عاما ، القائد الباسل الخالد الذكر بيبى ، لتكون فى مأمن من أن تصل إليها يد العدو الجشع .

أما التابوت ، فهو تابوت الملك الشهيد سيكننرع ، يحفظ جثته المحنطة ، التى اشتملت على جروح بالغة ، كل جرح منها يسجل صفحة خالدة للبسالة والتضحية .

أما العرش ، فهو عرشه المجيد ، وأعلن عليه كلمة طيبة الأبية ، وآثر أهوال الكفاح على ذل السلامة .

أما هذا الصندوق الذهبى ، فيحتوى على تاج مصر المزدوج ، تاج تيمايوس آخر ملوكنا الذين حكموا مصر المتحدة . وكنت أهديته لسيكننرع وهو خارج لقتال أبوفيس . فخاض غمار المعركة وهو على رأسه الكريم ، ودافع عنه الدفاع الذى يعرفه الجميع .

هذه يامولاى ودائع بيبى المقدسة ، أحمد الرب أن مدّ فى عمرى حتى ـ رددتها إلى أصحابها . داموا للمجد ، ودام لهم .

وتحولت أبصار الجميع إلى التابوت ، ودنا الملك وأسرته منه وأحاطوا به . وأحست توتيشيرى ، لأول مرة ، بالضعف والتخاذل واستندت إلى ذراع الملك ، وقد تساقطت دموعها . فأشفق حور عليها ، وقال لنوفرآمون :

ـ أيها الكاهن الأكبر ، احتفظ بهذا التابوت فى قدس الأقداس ، حتى يودع فى مقبرته ، باحتفال مهيب يليق بصاحبه .

فاستأذن الكاهن مولاه ، وأمر رجاله برفع التابوت إلى مثوى الرب المعبود .

وفتح الكاهن الصندوق ، وأخرج منه تاج مصر المزدوج . ودنا من أحمس فى إجلال ، وتوّج به رأسه . فهتف القوم جميعا : « عاش فرعون مصر » .

ثم صلى الجميع للرب المقدس صلاة الشكر والحمد أن هيّأ لهم الفوز ، وردهم إلى وطنهم ظافرين .

٣٤

جاء المساء وخيم الليل وطيبة لاتنام . وظلت ساهرة ترتفع المشاعل فى طرقاتها وضواحيها ، ويجتمع الناس فى ميادينها ينشدون ويهتفون .

لم يوات النوم أحمس فى تلك الليلة ، رغم ما به من تعب وإجهاد . فخرج إلى لشرفة المطلة على حديقة القصر . وجلس على أريكة وثيرة فى ضوء مصباح خافت . رسبحت روحه فى الظلام حوله . وكانت أنامله تعبث بسلسلة ذهبية بحنوّ وإشفاق ، ينظر إليها بين الفينة والفنية ، كأنه يستمد منها أفكاره وأحلامه .

لحقت به على غير انتظار ، الملكة الشابة نيفرتارى . وكان الفرح يبعد النوم عن عينيها . وظنت أن زوجها فى مثل سرورها . فجلست إلى جانبه مبتهجة منشرحة لصدر . وتحوّل الملك إليها مبتسما . فوقع بصرها على السلسلة فى كفه . فتناولتها لدهشة ، وقالت :

ـ هذا عقد ؟ ما أجمله .. ولكنه ناقص ..

فقال وهو يجمع أشتات فكره :

ـ نعم .. ضاع قلبه .

ـ واأسفاه .. وأين ضاع ؟ .

ـ لا أدرى .. ولكنه ضاع على غير إرادتى .

فنظرت إليه بمودة وسألته :

ـ أكنت تنوى أن تهديه إلىّ .

ـ إنى أدّخر لك ما هو أثمن وأجمل .

ـ فكيف إذن تأسف عليه ؟ .

صفحة فارغة

فقال ، وهو يجهد نفسه ، لكى يخرج صوته طبيعيا هادئا :

ـ إنه يذكّرنى بأيام الكفاح الأولى .. حين خرجت متخفيا فى ثياب التجار ، مسميا نفسى أسفينيس . فكان هذا العقد بين ما أعرضه على الناس للشراء . فياللذكرى الجميلة .. نيفرتارى ، أود أن تنادينى أسفينيس .. فهو اسم أحبه ، وأحب عهده ، وأحب من يحبه .

وأدار الملك وجهه ، ليخفى ما ارتسم عليه من التأثر والحنين . فابتسمت الملكة بسرور . ولاحت منها نظرة إلى الأمام ، فرأت على البعد ضوء مشعل يتحرك فى بطء ، فقالت وهى تشير بيدها :

ـ انظر إلى هذا المشعل .

فنظر أحمس إلى حيث تشير ، ثم قال :

ـ هذا مشعل فى قارب يسبح قريبا من الحديقة ..

وكان صاحب القارب قد تعمد أن يقترب من حديقة القصر ، ليسمع أهله القادمون جمال صوته ، فيحييهم وحده بعد أن حيتهم طيبة جميعها .

وكان صوته جميلا يأخذ بالسمع . فأنصت أحمس ونيفرتارى . وكانت الملكة تنظر إلى ضوء المشعل بعطف وحنان . وكان الملك ينظر إلى مابين قدميه بعينين شبه مغمضتين ، « تنوح » فى قلبه الذكريات .

الرواية التالية

أمام العرش

رقم الايداع : ٨٩/٨٦١٥
الترقيم الدولى : ٤ - ٣٣٧ - ١٤٨ - ٩٧٧

مطابع الشروق
القاهرة: ١٦ شارع جواد حسنى - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
بيروت: ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣